معالم الطريق لتربية الناشئين

* * *

التربية المثالية

فى الإسلام

بقلم

أحمد الشنوانى

{المحتـــوى}

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد فلا يستطيع أحد من المربين والمؤرخين أن ينكر أن التربية الإسلامية هى الأساس المتين لحضارة المسلمين. والمثل العليا فى تلك التربية تتفق مع الاتجاهات الحديثة فى عالم التربية اليوم فقد قدس الإسلام العلم والعلماء، وسما بالعلم إلى درجة العبادة، وعنى العناية التامة بجميع أنواع التربية، وخاصة التربية الروحية والدينية والخلقية ونادى بالحرية والمساواة وتكافؤ الفرص بين الأغنياء والفقراء فى التعليم، وقضى على نظام الطبقات وفرض طلب العلم على كل مسلم ومسلمة، وأعطاهما كل وسيلة للتعلم، إذا وجدت لديهما الرغبة فى العلم والإقبال عليه.

وقد فتحت المساجد والمعاهد ودور العلم والحكمة ودور الكتب، والحلقات الدراسية، والمنتديات الأدبية والعلمية أمام الطلاب، للتعلم والدراسة والبحث. وقدمت إليهم الدولة الإسلامية كل ما يحتاجون إليه، من طعام ومسكن وعلاج ومساعدات مالية لتمكنهم من المعيشة فى الحياة والتفرغ لطلب العلم.

وإننا لا نفخر إذا قلنا: إن مبادئ التربية الحديثة التى نادينا بها فى هذا القرن، ولم تستطع الدول المتمدينة تنفيذها كلها حتى اليوم قد روعيت ونفذت فى التربية الإسلامية، فى عصورها الذهبية، قبل أن تخلق التربية الحديثة بمئات السنين.

ولا تعجب إذا سمعت أن وظيفة المعيد التى تجدها اليوم فى الكليات والجامعات كانت متبعة فى المعاهد الإسلامية فى عصورها الذهبية وأن نظام الجامعات الشعبية مقتبس من التربية الإسلامية، فقد كان طلب العلم لدى المسلمين غير مقيد بشروط استعمارية فولاذية وأعمار محددة وشهادات معينة ودرجات معدودة، فقد كانت أبواب المساجد والمعاهد الدراسية مفتوحة لجميع الراغبين فى العلم والتعلم.

ولكن يؤسفنا أن نقول: أن المؤرخين والأدباء والفقهاء، وفلاسفة الإسلام لم يعنوا فى القرون الوسطى بالتأليف فى التربية الإسلامية العناية التى تستحقها فى حين أنهم كتبوا وأسهبوا وأجادوا الكتابة عن الحضارة الإسلامية والانتصارات الحربية والشئون الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية فى الإسلام. فقد تقرأ كتاباً عن نظام الملك أو صلاح الدين الأيوبى، فلا تجد إلا قليلاً عما أنشأه هذا أو ذاك من المدارس ودور العلم، أو ما قام به

من إصلاحات فى التربية والتعليم فى الوقت الذى نجد فيه كتابة مسهبة عن تاريخ حياة كل منهما وأعماله السياسية وحروبه العسكرية.

لهذا كله يجد الباحث صعوبة كبيرة إذا أراد أن يكتب عن التربية فى الإسلام فقد يقرأ كثيراً من الكتب العربية والأدبية والتاريخية والسياسية القديمة فلا يجد فيها إلا فصولاً متفرقة وأبواباً محدودة ونصائح مبعثرة. ورسائل معينة تتعلق بالمعلم والمتعلم أو تتصل من قريب أو بعيد بالتربية والتعليم. وقد يحتاج إلى كثير من المراجع لكتابة أى موضوع من موضوعات التربية الإسلامية،

ومع هذا لا يستطيع أحد أن ينكر أن للعرب والمسلمين كل الفضل على الغرب والغربيين وأن للعلوم العربية والحضارة الإسلامية أثراً كبيراً فى النهضة الأوروبية الحالية فقد نقل الإغريق – وهم اليونانيون القدماء – العلوم والثقافة العربية والمدنية الإسلامية والفنون الشرقية، بعد أن ازدهرت وارتفعت ونضجت وأثمرت على أيدى علماء الإسلام وفلاسفته، إلى أوربا فى عصورها المظلمة، فى القرون الوسطى. فللعرب والإسلام والشرق قديماً كل الفضل فى نشر العلم والثقافة والحضارة والفن فى الغرب وأوروبا فقد كان للتربية الإسلامية أكبر الأثر فى النهوض بكل أنواع التربية بما اقتُبس منها من المبادئ المثالية فى الدين والأخلاق، ومراعاة النواحى الإنسانية والاجتماعية والتعاونية، كالإخاء والحرية والمساواة والعدالة وتكافؤ الفرص، والوحدة الروحية بين المسلمين فى الإمبراطورية الإسلامية العظيمة. ولا عجب، فعلى هذه الأسس القوية والقواعد الذهبية أسست التربية الإسلامية فى عصورها الأولى.

واعتقد تمام الاعتقاد أن التربية الإسلامية ستنال ما تستحقه من العناية فى هذا العصر. وبهذا المجهود المتواضع أرجو أن أكون قد قمت ببعض الواجب نحو الإسلام وآمل أن يجد القارئ فى هذا الكتاب ما يشبع رغبته، ويفتح سبل البحث أمامه.

والله أسأل أن يعيد للإسلام مجده الماضى ومبادئه المثالية وحضارته الخالدة إنه سميع مجيب...

المؤلف

أحمد الشنوانى

أغراض التربية الإسلامية

إن التربية الخلقية هى روح التربية الإسلامية، وقد أجمع الإسلام على أن التربية الخلقية هى روح التربية الإسلامية. والوصول إلى الخُلق الكامل هو الغرض الحقيقى من التربية.. وليس معنى هذا أن نقلل من العناية بالتربية الجسمية أو العقلية أو العلمية أو العملية، بل معناه أن نعنى بالتربية الخلقية كما نعنى بالأنواع الأخرى من التربية فالطفل فى حاجة إلى قوة فى الجسم والعقل والعلم والعمل، وتربية الخُلق والوجدان والإرادة والذوق والشخصية.

وقد اتفق علماء التربية الإسلامية على أنه ليس الغرض من التربية والتعليم حشو أذهان المتعلمين بالمعلومات وتعليمهم من المواد الدراسية ما لم يعلموا، بل الغرض أن نهذب أخلاقهم ونربى أرواحهم، ونبث فيهم الفضيلة، ونعودهم الآداب السامية، ونعدهم لحياة طاهرة كلها إخلاص وطهارة. فالغرض الأول والأسمى من التربية الإسلامية تهذيب الخُلق، وتربية الروح. وكل درس يجب أن يكون درس أخلاق. وكل معلم يجب أن يراعى الأخلاق. وكل مؤدب يجب أن يفكر فى الأخلاق الدينية قبل أى شئ آخر. والأخلاق الدينية هى الأخلاق المثالية الكاملة. والخُلق النبيل عماد التربية فى الإسلام. ويرى الغزالى: أن الغرض من التربية التقرب إلى الله دون الرياسة والمباهاة وألا يقصد المتعلم بالتعلم الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران. وهو لا يخرج عن التربية الخلقية.

ومن الممكن أن نلخص الغرض الأساسى من التربية الإسلامية فى كلمة واحدة هى:

"الفضيلة" .

ونستطيع أن نجمل أغراض التربية الإسلامية فى:

١ - العناية بالدين والدنيا معاً:

لم يكن أفق الإسلام ضيقاً فى النظر إلى أغراض التربية فلم يقصر التربية على الناحية الدينية ولم يقصرها على التربية الدنيوية بل نادى الرسول الكريم حاثاً كل فرد من الأمة الإسلامية بالعمل لدينه ودنياه معاً. حيث قال:

"اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً" فلم يفكر رسول الله فى الدنيا وحدها أو الدين وحده ولكنه فكر فى العمل لهما معاً بدون إهمال للعالم الدنيوى أو العالم الدينى.

٢ - العناية بالنواحى النفعية:

كما عنيت التربية الإسلامية بالنواحى الدينية والخلقية والروحية فى التربية والتعليم لم تهمل العناية بالنواحى النفيعة فى معاهدها ومناهجها. ويتضح هذا الغرض من كتاب عمر بن

الخطاب إلى الولاة: "أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل، وما حسن من الشعر" فعمر يأمر بتعليم الأولاد السباحة والعوم والفروسية والرياضة البدنية والمهارة الحربية والعناية باللغة العربية. ورواية الأمثال السائرة والشعر الحسن. وأن أثر علماء الإسلام فى النهضة العلمية لا يستطيع أن ينكره إلا كل مكابر متعصب. قال "مونرو" فى كتابه "تاريخ التربية": "..ففى الطب والجراحة وعلم العقاقير والفلك، وعلم وظائف الأعضاء، وصل المسلمون إلى اختراعات هامة. واخترعوا ساعة البندول، وعلموا أوربا استعمال البوصلة والبارود".

فالتربية الإسلامية لم تكن كلها دينية وخلقية وروحية ولكن هذه الناحية كانت مسيطرة على الناحية النفيعة. ولم تكن فى أساسها مادية بل كانت المادة أو كسب الرزق أمراً عرضياً فى الحياة لم يقصد الكسب لذاته بل كان أمراً ثانوياً فى التعليم. وقد كان من رأى الفارابى وابن سينا وإخوان الصفا أن الكمال الإنسانى لا يتحقق إلى بالتوفيق بين الدين والعلم.

٣ـ دراسة العلم لذات العلم:

كان طلاب العلم من المسلمين يدرسونه لذاته فهو فى نظرهم ألذ شئ فى الحياة، والإنسان محب للإطلاع بفطرته، لهذا عنى فلاسفة الإسلام بدراسة كثير من العلوم والآداب والفنون ليشبعوا ما لدى الطالب من ميل فكرى إلى حب الإطلاع والمعرفة. وهذه هى التربية المثالية حيث يدرس الطالب لذات العلم والأدب لذات الأدب والفن لأن فى هذا لذة علمية أو أدبية أو فنية لا نظير لها. قال الحاج خليفة فى كشف الظنون[1].

والعلم ألذ الأشياء وأفضلها.. وقال فى موضع آخر: ليس الغرض من الدرس تحصيل الرزق فى هذه الدنيا ولكن الغرض الوصول إلى الحقيقة وتقوية الخُلق يعنى الوصول إلى الحقيقة العلمية والخُلق الكامل.

فالتربية الإسلامية كانت مثالية تطالب بالعلم لما فيه من لذة روحية، للوصول إلى الحقائق العلمية والأخلاق النبيلة. وأن من ينظر إلى ما خلفه المسلمون من تراث علمى وأدبى ودينى وفنى يجد أمامه ثروة خالدة لا نظير لها فى العالم كله، تدل على شدة تعلقهم بالعلم لذاته، والأدب لذاته، والفن لذاته. وليس معنى هذا أنهم أهملوا التعلم لكسب الرزق كلية. ويتبين هذا من الغرض التالى:

---

(١) صفحة ١٦

٤ - التعليم المهنى والفنى والصناعى لكسب الرزق:

لم تهمل التربية الإسلامية إعداد كل فرد لكسب رزقه فى الحياة بدراسة بعض المهن والفنون والصناعات والتدرب عليها. ويظهر هذا الغرض واضحاً من قول ابن سينا: "إذا فرغ الصبى من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك إلى ما يراد أن تكون صناعته فيوجه لطريقه".. ويُعد إعداداً مهنياً أو فنياً أو صناعياً حتى يجيد مهنة من المهن أو فناً من الفنون أو صناعة من الصناعات، حتى يتمكن من كسب رزقه ويحيا حياة شريفة مع المحافظة على الناحية الروحية والدينية. فالتربية الإسلامية كانت خُلقية غالباً ولكنها لم تهمل إعداد الفرد للحياة وكسب العيش والرزق ولم تنس تربية الجسم والعقل والقلب والوجدان والإرادة والذوق واليد واللسان والشخصية.

مبادئ التربية الإسلامية

إذا رجعنا إلى الاتجاهات الحديثة فى التربية فى القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين ودرسنا مبادئها وطرقها وأنظمتها وجدنا أن التربية الإسلامية قد سبقتها بقرون فى المناداة بكثير من المبادئ والأساليب التربوية الهامة، وفى الإسهام فى النهضة العقلية، والمثل الخلقية. وسنبين تلك الآراء الخالدة بإيجاز فيما يأتى:

١ - الحرية والديمقراطية فى التعليم:

تأثرت طرق التربية والتعليم فى التربية الإسلامية تأثراً كبيراً بمبدأ الحرية والديمقراطية، فقد نادى الإسلام بمبدأ المساواة وتكافؤ الفرص فى التعليم، فيسرت سبل التعليم ووسائله أمام الطلبة جميعاً، وفتحت أبواب المساجد والمعاهد الدراسية للجميع، من غير تفرقة بين الغنى والفقير، والرفيع والوضيع من المتعلمين إذ لا فضل فى الإسلام لعربى على عجمى إلا بالتقوى والتعليم فيها بالمجان، والطلاب غير مقيدين بسن محددة أو أشهر معدودة، أو شهادات خاصة أو درجات معينة فى الامتحانات أو قواعد مسنونة لاختيارهم. فمتى وجدت لدى المتعلم الرغبة فى الدراسة ومحبة التعليم، والشغف بالبحث والإطلاع يسرت أمامه رسائل التعلم وشجع على طلب العلم وخاصة إذا كان ذكياً نابهاً.

ولم تكتف الإمبراطورية الإسلامية بإنشاء المساجد والمعاهد ودور العلم والحكمة لنشر التعليم بل أغدقت عليها كثيراً من الأموال والخيرات. وقف عليها الموسرون من المسلمين كثيراً من العقارات والأوقاف كى يتمكن الطلاب الفقراء من متابعة الدراسة والتعمق فى الثقافة، والتفوق فى البحث والاستمرار فى طلب العلم والمعرفة. وقد ظهر فى الإسلام كثير من العظماء والعلماء من أبناء الفقراء نذكر منهم الغزالى والإمام الشافعى والجاحظ.. رحمهم الله رحمة واسعة. فقد وجدوا طلب العلم ميسراً أمامهم فانتهزوا الفرصة وجدوا وثابروا ودرسوا وتعمقوا فى دراستهم وانتفعوا بما أوتوه من ذكاء وذاكرة وقوة ملاحظة فخلدوا أسمائهم بين العلماء أو الأدباء أو الفلاسفة أو الفقهاء.

ولم تكن المواد الدراسية مقيدة بمناهج محددة بل كان الطلاب فى كل مادة يدرسون كتاباً معيناً، فإذا ما انتهوا من دراسته انتقلوا إلى كتاب آخر أعلى درجة منه فى تلك المادة وهكذا حتى ينتهوا من دراسة الكتب التى يريدونها.

كان التعليم واجباً دينياً فقد فرضه الإسلام على كل مسلم ومسلمة. لهذا تحمس الأغنياء فى إقامة دور التعليم من المساجد والمعاهد والمدارس والكتاتيب ودور الكتب وتزويدها بما تحتاج إليه من المؤلفات والأدوات، تقرباً إلى الله تعالى حتى تؤدى رسالتها على الوجه الأكمل وينتشر التعليم وتطهر النفوس ويتمسك المتعلمون بكل فضيلة ومن تلك المنافسة

النبيلة بين الأثرياء من المسلمين قديماً فى انشاء المعاهد الإسلامية نلمس كيف كانوا يشعرون بالواجب نحو نشر العلم والثقافة بين المسلمين.

فالمجهود فى نشر التعليم لم يكن على عاتق الدولة وحدها، فقد كان الموسرون فى العصور السالفة -لا فى عصرنا هذا- ينشئون دور التعليم من تلقاء أنفسهم، ويتبرعون لها بما فى استطاعتهم من التبرعات ولم يتركوا كل العبء على الدولة بل تعاونوا معها ابتغاء مرضاة الله. وكانت الدولة تقوم بالتخطيط والارشاد والتوجيه وتساعد فى انشاء المبانى التعليمية وإعدادها بالأجهزة والمراصد والمعامل مساعدة تتفق وعظمة الإمبراطورية الإسلامية وقوة سلطانها ولم يقيد التعليم بقيود حديدية أو مؤهلات علمية أو مصروفات مدرسية أو شروط تعجيزية كى لا يضعوا عقبة فى سبيل من يريد التعليم من البنين والبنات. وفتحت أبواب التعليم على مصاريعها أمام كل راغب فى الدراسة العلمية والدينية وفى كل وقت وكل دار من دور التعليم. وهذه هى الديمقراطية الحقة فى التربية والتعليم.

كان التعليم بالمجان والغذاء بالمجان والإقامة بالمجان فى المراحل المختلفة من التعليم فى المعاهد الإسلامية، وهذا أكبر مظهر من مظاهر الديمقراطية فى الإسلام وأن هذا الروح الديمقراطى الإسلامى الذى انتشر فى التعليم لا نجده حتى اليوم بين أغنى الدول الأوربية أو الأمريكية.

وفى التربية الإسلامية لم يضطر الفقراء من طلاب العلم إلى السعى للحصول على المجانية فى أية مرحلة من مراحل التعليم أو الكد والعمل صيفاً وشتاءً لتوفير المصروفات المدرسية أو الجامعية. ولم يكن الفقر فى عصر الإمبراطورية الإسلامية الحرة المستقلة عقبة فى سبيل التعلم فى أى معهد بل أعطى الفقراء كل فرصة فى أن يتعلموا التعليم الذى يبغونه ولم توضع أمامهم العقبات بل مهدت لهم كل السُبل، وزودوا بجميع الوسائل التى تيسر لهم التفرغ لطلب العلم من مجانية فى التعليم وإقامة بالإقسام الداخلية، وتغذية صحية ومساعدة مالية وانتفاع بما فى المكتبات من كتب ومراجع.

ولم يطالب أبناء الفقراء من المسلمين بالإكتفاء بالتعليم الابتدائى أو الثانوى والرضا بمراكزهم المتواضعة فى الحياة بسبب الفقر بل شجعوا على اللحاق بالمعاهد العليا وأعطى الجميع الفرصة فى أن يتعلموا حتى النساء والجوارى. وكان المسلمون ينظرون إلى العلماء والأدباء والفقهاء نظرة كلها إجلال وإكبار، سواء أكانوا أغنياء أم فقراء ولهذا شجع الأباء أبناءهم على التعليم والإقبال على المعاهد الدراسية وقد بدأت بعض الدول الإسلامية منذ سنوات فى نشر التعليم الابتدائى والثانوى بالمجان والتغذية فى المدارس الابتدائية بالمجان وفى هذا المبدأ رجوع إلى ماضينا الإسلامى المجيد وتقاليدنا الإسلامية الديمقراطية العريقة.

لقد سوى الإسلام بين أبناء الأغنياء والفقراء فى التعليم ومنحهم جميعاً الفرصة فى أن يتعلموا من غير تفرقة بينهم. ولم يقل أحد من المسلمين أن الفقراء خلقوا ليعملوا بأيدهم فى الحقول والمزارع والمعامل والمصانع، وأن الأغنياء وجدوا ليتحكموا فى الفقراء، ويسطروا عليهم بما أوتوا من مال وثراء، ولم يدع أحد فى الإسلام أن الذكاء مقصور على الأغنياء وأنهم خلقوا ليتحكموا، وأن الفقراء أغبياء خلقوا ليحكموا. فالذكاء هبة فطرية من الله تعالى يمنحها الفقراء كما يمنحها الأغنياء ولم يجعله مقصوراً على طبقة من الطبقات. وقد سوى الإسلام بين الفقراء والأغنياء فى حق التعليم، ومهد لهؤلاء وأولئك الفرص الملائمة للتزود بالعلوم والمعارف.

لم يقل الإسلام للفقراء أنكم خُلقتم للمراكز المتواضعة وخُلق الأثرياء للمراكز العالية. كما كان يقال فى أوربا حتى القرن التاسع عشر، بل نادى الإسلام دائماً: الناس سواسية كأسنان المشط، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى. وهذه هى الديمقراطية والعدالة والمساواة فى الإسلام.

والحق أن المعاهد الإسلامية لم تقيد بشروط معينة للحاق بها ولم ينتظر من طالب العلم إلا أمر واحد هو الرغبة فى العلم، والإقبال عليه، والتعطش للتعلم. ولم توصد أبواب المعاهد والحلقات الدراسية فى وجه طالب من طلبة العلم وقد وهب الأساتذة والعلماء حياتهم للعلم والتعليم، ولم ينتظروا أجراً أو راتباً، بل كانوا يشتغلون بمهنة التعليم ابتغاء مرضاة الله ويستعينون على المعيشة فى الحياة بحرفة أو صناعة يتخذونها فى بعض أوقات فراغهم.

لهذا كله أقبل الطلاب على العلم لذات العلم. وظهر كثير من العلماء والأدباء والمؤرخين الأفذاذ كابن سينا والفارابى والغزالى، والكندى وابن الهيثم وابن خلدون والطبرى وابن الأثير والجاحظ والمعرى والمتنبى.

ولا عجب، فقد كانت سُبل التعليم ميسرة للجميع والكتب متوافرة للطلبة والحياة ممهدة لا يجد النابهون والأذكياء من الفقراء أية عقبة فى سبيلهم. لذلك وجد منهم عظماء من الفقهاء والمفسرين والمحدثين، وعلماء اللغة، والأدباء، الذين خدموا الدين واللغة والعلم والأدب خدمة عظيمة نلمسها فيما تركوه من مؤلفات ثمينة وكتب قيمة.

وخلاصة القول: أن التربية الإسلامية تتمثل فيها المبادئ الديمقراطية، من الحرية والمساواة وتكافؤ الفرص فى التعليم، من غير تفرقة فى طلبه بين الموسرين والمعدمين وأن المسلمين كانوا يعدون طلب العلم فريضة دينية وواجباً روحياً لا وسيلة لغرض مادى ويقبلون عليه بقلوبهم وعقولهم ويطلبونه برغبة قوية من تلقاء أنفسهم. وكثيراً ما كانوا يقومون برحلات طويلة شاقة فى سبيل تحقيق مسألة علمية أو دينية.

٢ ـ التربية الخلقية الكاملة أسمى أغراض التربية الإسلامية:

تعد التربية الخلقية المثالية أسمى أغراض التربية الإسلامية فقد عُنى علماء الإسلام كل العناية ببث الأخلاق الكريمة وغرس الفضائل فى نفوس المتعلمين، وتعويدهم التمسك بالفضيلة، وتجنب الرذيلة، والتفكير فى الناحية الروحية والإنسانية والتفرغ للدراسة العلمية والدينية من غير نظر إلى ناحية مادية.

وأن من يقرأ ما كتبه فلاسفة الإسلام من آراء فى التربية وتهذيب الأخلاق يلمس الاتجاه دائماً نحو المُثل السامية ويرى أنهم كانوا يطلبون العلم لذات العلم ويعدون طلبه عبادة ويقضون حياتهم دائبين فى البحث والدراسة للوصول إلى لب الحقيقة دون تفكير فى مال أو جاه أو مركز، ويقدسون العلم والعلماء، وكمال الأخلاق. فالعلم فى نظرهم أعظم شئ فى الحياة، والعلماء العاملون ورثة الأنبياء. ولا يستطيعون تأدية رسالتهم العلمية إلا إذا تحلوا بكل فضيلة وطهروا أنفسهم من كل رذيلة. وعن طريق العلم والعمل الصالح كانوا يسمون بأرواحهم ويتقربون إلى خالقهم جل شأنه.

وأن تلك المثالية النادرة التى امتازت بها العصور الذهبية للإسلام هى سر عظمتها وقوتها الروحية، وقد أدت إلى النشاط كبير فى التأليف والإنتاج العلمى والعمل عن إيمان وعقيدة بثبات وشجاعة وإقدام. لهذا كله كان مستوى العلماء الخُلقى والروحى رفيعاً ونجحوا فى حياتهم ونهضوا فى كل ناحية، وقادوا العالم فى العصور الإسلامية الأولى فى حضارتهم الإسلامية، ومدنيتهم الروحية، ومُثلهم العالية فى الدين والأخلاق، ودافعوا عن الإنسانية بمبادئهم الديمقراطية من الحرية والإخاء والمساواة والعدالة المطلقة. وفى الوقت الذى عنيت فيه التربية الإسلامية بالناحية الروحية والخُلقية لم تهمل أى نوع من أنواع التربية العقلية أو الجسمية أو الرياضية أو الاجتماعية والعلمية والعملية فوصلت إلى التربية المثالية الكاملة للإنسان، وتركت تلك التربية أثراً لا يستطيع أن ينكره أحد فى العمل عن إيمان وعقيدة والعلم لذات العلم.

وقد نهضنا الآن فى الميادين العلمية والأدبية والمادية ولكننا لم نصل إلى المستوى الروحى والخلقى الذى وصل إليه المسلمون فى العصور الاولى من الإسلام. والحق أننا فى حاجة شديدة إلى التفكير فى الناحية الروحية والتربية الخُلقية المثالية حتى نعيد مجدنا السالف وعظمتنا الإسلامية القديمة.

٣ - خاطبوا الناس على قدر عقولهم:

هذا مبدأ من أهم المبادئ فى التربية الإسلامية ويُعد من أحدث المبادئ فى التربية الحديثة. وينبغى أن تكتب هذه النصيحة بقلم من النور على باب كل مدرسة، فلا يخاطب الأطفال بلغة لا يفهمونها ولا يخاطب الكبار بلغة الصغار. وهذا ما يشير إليه الغزالى بقوله: "أن يقتصر المعلم بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله" اقتداء فى ذلك بسيد البشر ﷺ حيث قال: "نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم" فليبث إليه المعلم الحقيقة إذا علم أنه يستطيع فهمها مستقلاً بنفسه وليضع كل طفل فى الموضع اللائق وليختر للمتعلمين المادة التى يدركونها وليكلمهم على قدر عقولهم، وليخاطبهم بالعبارة التى يفهمونها، واللغة التى يحسنونها.

وقال ﷺ : "ما أحد يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم". وأن التربية الحديثة تنادى بما نادى به الرسول الكريم من مخاطبة المتعلمين على قدر عقولهم ومراعاة مستواهم العقلى ومستواهم العلمى، حتى يدركوا الأحاديث التى تقال لهم، والموضوعات التى يدرسونها. فلا يخاطب الأذكياء بما يخاطب به الأغبياء، ولا يخاطب الخاصة بما يخاطب به العامة. فالذكى يفهم الشئ بالإشارة والغبى ربما لا يفهمه إلا بعد أن يكرر له عدة مرات. ولذلك قيل: كل لكل عبد بمعيار عقله، وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك. وضع كل شئ فى موضعه وهى خير نصيحة لو استطاع أن ينفذها كل مرب ومربية.

٤ - التفرقة فى الطريقة التى تتبع فى التعليم:

فطريقة تعليم الأطفال تختلف عن الطريقة التى تتبع فى تعليم الكبار. وقد نادى الغزالى بهذا الرأى لأن هناك فرقاً بين إدراك الصغار وإدراك الكبار حيث قال:

(إن من أول واجبات المربى أن يعلم الطفل مايسهل عليه فهمه لأن الموضوعات الصعبة تؤدى إلى ارتباكه العقلى وتنفره من العلم) ويشاركه العلامة ابن خلدون فى هذا الرأى قائلاً:

(وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذى أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته ويحضرون للمتعلم فى أول تعلميه المسائل المقفلة من العلم ويطالبون ذهنه بحلها، ويحسبون ذلك مرانة على التعليم وصوابًا فيه... فإن قبول العلم والاستعداد له ينشأ تدريجياً)، فالغزالى وابن خلدون وغيرهما من فلاسفة التربية الإسلامية يرون أن تفكير الطفل يختلف عن تفكير الرجل، ويجب مراعاة ذلك فى طريقة التدريس لكل منهما. ويُعد هذا الرأى من أهم الأراء فى التربية الحديثة فى القرن العشرين وما بعده.

فالطفل يحتاج إلى الأمور المحسة التى تتصل ببيئته والمواد السهلة التى يمكنه أن يفهمها والرجل يستطيع أن يدرك الأمور المعنوية التى تتفق مع العقل والمنطق.

٥- التربية الإسلامية تربية استقلالية:

إن من ينظر إلى طرق التدريس فى التربية الإسلامية -فى المساجد ودور العلم- يجد أنها كانت ترمى إلى تعويد الطلبة الاعتماد على أنفسهم فى التعلم، فالمدرس أو المحاضر يعين لطلبته بعد الانتهاء من درسه كل يوم تعييناً خاصاً من الكتاب الذى يدرسونه، لقراءة التعيين قبل الدرس وإعداده والاجتهاد فى فهمه، فإذا ذهب الطلاب إلى الدرس أصغوا إلى أستاذهم، واستمعوا إليه وهو يشرح الدرس، ويفسر النقط الصعبة فيه ويرشد من يحتاج إلى الإرشاد ويساعد من يحتاج إلى المساعدة ويجيب عما يسألونه من الأسئلة ويناقشهم فيما يحتاج إلى مناقشة.

وبهذه الطريقة يعتاد الطلاب الاعتماد على النفس فى القراءة والفهم والبحث ويربون تربية استقلالية.

وكانت طريقة التعيينات متبعة فى الجامع الأزهر وقد كونت أفذاذاً من العلماء المعروفين بالعلم والصلاح والتقوى والشجاعة الأدبية وكان المحاضر يلقى محاضرته وهو متمكن منها كل التمكن ويشرح آراء العلماء ويبين وجهة نظر كل منهم ويبدى رأيه الخاص ويترك للطلبة الحرية فى الإسئلة والمناقشة. وفى التربية الحديثة تسمى طريقة التعيين طريقة دلتون وهى طريقة حديثة تنسب إلى "مس هيلين باركهرست" وقد جريت طريقتها فى بلدة دلتون بولاية مساشوستس من الولايات المتحدة الأمريكية. وهى لا تختلف عن الطريقة الأزهرية قديماً فى التربية والتعليم.

٦- نظام التعليم الفردى فى التربية الإسلامية:

إننا نقصد من التعليم الفردى مراعاة قوة كل فرد ومستواه فيما يدرسه من المواد وفى عالم التربية اليوم حركة قومية تحض على اتباع هذا النظام. وقد تعجب إذا عرفت أنه روعى فى التربية الإسلامية العريقة منذ قرون مضت وكان لكل طالب الحرية فى أن يختار أستاذه الذى يتلقى العلم عنه ولا يفرض عليه أستاذ معين ويختار المواد التى يدرسها ويسير فى كل منها على حسب مستواه، وكانت التبعة فى الدراسة والبحث تلقى على عاتق الطالب فهو ملزم بإعداد الدرس أو التعيين وقراءته ومحاولة فهمه ومناقشته مع غيره من زملائه قبل أن يحضر درس أستاذه وسؤال الأستاذ عن النقط التى يشعر بصعوبتها فى الدرس وكان يسير مع أستاذه من درس إلى درس حتى ينتهى الكتاب الذى يقرؤه الأستاذ. وكان المدرس على

صلة روحية كبيرة بتلاميذه، يعرف قواهم وميولهم ورغباتهم ويراعيها فى تدريسه وللصلة الروحية القوية بينه وبينهم كانوا يستفيدون كثيراً من علمه وخُلقه، وينتفعون من الاتصال به روحياً وعلمياً.. وهذا روح التربية الحديثة اليوم.

وكان المتعلمون يشبعون رغباتهم بما يحتاجون إليه من العلم ويعتمدون على أنفسهم فى البحث وراء الحقيقة حباً فى الوصول إليها يرشدهم المعلم حين يحتاجون إلى الإرشاد ويجدون لذة فى التعلم ويعطون الحرية فى العمل بأنفسهم، فيتعودون الجد والمثابرة على العمل والاعتماد على النفس والتغلب على الصعوبات التى تعترضهم، ويمرنون على إتقان العمل وإجادته ويعتادون الصفات الضرورية للنجاح فى الحياة العلمية والعملية.

ولم يقتصر طلاب العلم على التحصيل من الكتب وحدها فكان أساتذتهم يشجعونهم على الرحيل فى سبيل طلب العلم للاتصال بالعلماء والأدباء والمؤلفين وأخذ العلوم من منابعها الأصلية، وكثيراً ما احتمل الطلاب قديماً مشاق السفر الطويل للاتصال شخصياً بأساتذتهم، ورحلوا إلى أقاصى البلاد الإسلامية لتحقيق مسألة علمية أو فقهية واحدة.

من هذا كله نرى أن التربية الإسلامية كانت تنادى بحُسن الصلة بين المدرس وتلاميذه ومراعاة مستوى المتعلمين ومواهبهم واستعداداتهم والرحلات فى سبيل الدراسة والبحث العلمى. وهذه كلها مبادئ نعدها مثالية فى التربية الحديثة فى القرن الواحد والعشرين.

٧- مراعاة الاستعدادت الفطرية والغرائز الطبيعية للمتعلم فى إرشاده إلى المهنة التى يختارها:

لقد طالب علماء التربية الإسلامية بمراعاة ميول المتعلم واستعداداته الفطرية وقدراته الطبيعية عند ارشاده إلى المهنة التى يختارها فى مستقبل حياته وخاصة ابن سينا فقد نادى بالعناية بدراسة ميول الطفل وجعلها أساساً لإرشاده وتربيته قائلاً: ليس كل صناعة يرومها الصبى ممكنة له مواتية ولكن ما شاكل طبعه وناسبه.. ولذلك ينبغى لمدبر الصبى إذ رام اختيار صناعة أن يزن أولاً طبع الصبى، ويسبر قريحته ويختبر ذكاءه، فيختار له الصناعات بحسب ذلك". وهى نصيحة ثمينة لابن سينا ينصح فيها المربين الذين يريدون اختيار صناعى لصبى من الصبيان أن يزنوا طبعه أو ميله ويعرفوه ويختبروا عقله وذكاءه، حتى يختاروا له صنعة تناسب ميله وعقليته، فإذا كان يميل إلى الدراسة الأدبية وجه إليها وإذا رغب فى الناحية العملية شجع على اختيارها وإذا أحب الدراسة العلمية أعطى الفرصة فى دراستها. وهذا رأى من أثمن الآراء فى التربية الإسلامية ونحن ننادى به اليوم فى التربية الحديثة.

وليس من السهل أن ينبغ المتعلم فى كل مادة يدرسها ولكنه يستطيع أن يتفوق ويكون ماهراً فى المواد التى يحبها ويميل إلى دراستها. ومن المحال أن ينبغ فى المواد التى يكرهها وينفر منها.

ولا أبالغ إذا قلت أن التربية الإسلامية كانت تفكر فى الأذكياء وتلتقطهم كما تلتقط الأزهار من الحدائق وتعنى بها كل العناية وتضعهم فى المواضع التى تناسب ذكاءهم وتوجه غير الأذكياء والمتعلمين إلى الناحية العملية بعد الإلمام بالضرورى من الدراسة الدينية وتوضح لكل طالب ما يليق بطبعه من العلوم إذ كل ميسر لما خلق له، فالتربية الإسلامية تربية مثالية قد نادت منذ أكثر من ألف سنة بما ينادى به علماء النفس والتربية اليوم وانتظرت من المدرس أن يفكر فى حال الطالب إذا كانت لديه زيادة فى الفهم بحيث يقدر على حل المشكلات وكشف المعضلات ويهتم بتعليمه أشد الاهتمام. وإلا فليعلمه القدر الكافى لمعرفة الفرائض والسنن، ثم يأمره بالاشتغال، وليكن بصيراً فى اختبار ذهنه وعقله وقياس ذكائه ويبين لكل طالب ما يليق بطبعه من العلوم.

وهنا نلمس أن التربية الإسلامية لا تختلف عن التربية الحديثة فى مراعاة مستوى الطفل وحسن اختيار المادة له والتدرج معه فى الدرس على قدر استعداده، واعطاء الذكى فرصة فى إتمام تعليمه بأية وسيلة، وتوجيه الأقل ذكاء إلى الاشتغال بالناحية العملية، بعد اختبار ذكائه. وأن فكرة الاختبارات العقلية أو مقاييس الذكاء التى نفخر ونتباهى بها فى القرن الحالى قد روعيت فى العصور الذهبية للتربية الإسلامية بطريقة عملية. ولا أبالغ إذا قلت أن فلاسفة الإسلام نادوا بما ننادى ونفخر به اليوم.

٨- الولع بالعلم والتفرغ للدراسة:

كان الطلاب مولعين بالعلم محبين للتعلم، متفرغين للدراسة يقضون جل أوقاتهم فى البحث والإطلاع والقراءة والدرس ومحاولة الفهم وحل المعضلات من الاعتراضات العلمية وهضم العلم الذى يدرسونه ويجدون لذة كبيرة فى الفحص عن العلوم والمسائل ويمكثون نهارهم وليلهم -إلى أقله- فى إعداد دروسهم لليوم التالى ويهبون شبابهم وحياتهم لطلب العلم والمعرفة ويستيقظون من نومهم مبكرين لصلاة الفجر ثم حضور درس التفسير أو الحديث ثم الفقه ثم اللغة.

لهذا كان من بين المسلمين أعلام العلماء وكبار الفلاسفة ومشهورو الفقهاء والكتاب والأدباء والشعراء والمؤلفون واللغويون وأنتجوا مؤلفات ضخمة قيمة فى التفسير والحديث والفقه والتوحيد والبلاغة والأدب والنحو والصرف والمعاجم اللغوية. وهى كتب ومراجع لا يستطيع أحد من علماء اليوم فى الشرق أو الغرب أن يقوم بمثلها.

٩- العناية بالخطابة والمناظرة وتربية اللسان:

كان من أهم أنواع التربية الإسلامية التربية اللسانية وهى تعويد اللسان حُسن التعبير مع دقة التفكير والارتجال فى الخطابة والاقناع فى المناظرة والمناقشة والمجادلة وتُعد طلاقة اللسان فى الكلام الآن من الضروريات للنجاح فى حياة المعلمين والمحامين والسياسيين... وإذا نظرنا إلى التربية فى عصرنا هذا وجدنا عناية كبيرة بالكتابة وإهمالاً تاماً للمناظرة والخطابة مع أن الحياة الديمقراطية تتطلب العناية بكلتيهما تتطلب الفصاحة والبلاغة فى كتابة الرسائل والمقالات وإلقاء الخطب ارتجالاً وتحتاج إلى تربية اليد لتكتب كتابة بليغة واللسان ليتكلم كلاماً فصيحاً وبعبارة أخرى تحتاج إلى استعمال القلم وذلاقة اللسان وقوة البيان. فنحن نطالب اليوم بجودة التعبير بالقلم واللسان معاً بحيث لا نعنى بأحدهما ونهمل الآخر.

فكما ننتظر من المربين أن يربوا الطلاب ليفكروا بعقولهم ويشعروا بقلوبهم وينفذوا بإرادتهم ننتظر منهم عنايتهم بالخطابة والمناظرة وإجادة التعبير بالقلم واللسان.

ولا يستطيع أحد أن ينكر أثر المناظرات والمناقشات فى المنتديات والمجتمعات الإسلامية فى النهضة العلمية والأدبية والدينية.

١٠- الرفق فى معاملة الأطفال:

كانت التربية قبل الإسلام تتبع أساليب الشدة والقسوة فى معاملة الأطفال وتربيتهم فقد كان الجلد منتشراً، والعقاب القاسى شائعاً، ولكن فلاسفة الإسلام تنبهوا إلى مضار هذه الأساليب فى التربية فحذروا من استعمالها ونادوا بالرفق فى تربية الأطفال وعلاج أخطائهم بروح الشفقة والرأفة والعطف والرحمة ومعرفة البواعث التى أدت إلى هفواتهم والعمل على تداركها، وتفهيم الأولاد نتيجتها، وساروا مع الطرق المثلى فى التربية وحملوا حملة شعواء على الشدة والقسوة فى التربية وعدوها قاتلة للهمم، مخيبة للذكاء، مؤدية إلى الذل والخداع.

١١- نظام الجامعات الشعبية مقتبس من التربية الإسلامية:

كانت التربية الإسلامية مرنة، تفتح أبوابها لكل راغب فى طلب العلم قادر على الفهم تشجع المتعلمين على الاستمرار فى التعلم والبحث العلمى، لا تتقيد بسن أو مجموع درجات أو ترتيب فى امتحانات ولا تطلب منهم مصروفات.

فالنظام الحديث للجامعات الشعبية اقتبسته أوربا من التربية الإسلامية فى عصورها الأولى تلك التربية التى قدست العلم وعدته نوعاً من العبادة ورغبت النشء فى التعلم، ولم

تشترط مؤهلات معينة او شهادات خاصة أو نسباً مئوية محددة ولم تقيد بقيود من الفولاذ، وشروط كلها تعقيد وتعجيز ولم تضع عقبات فى سبيل من يرغبون فى طلب العلم.

فالدين الإسلامى دين علم ونور لا دين جهل وظلمة ونظام الجامعات الشعبية التى تعمل لنشر الثقافة العامة بين الراغبين فى تكملة أنفسهم ثقافياً وعلمياً وأدبياً وفنياً من أبناء الشعب وبناته – مقتبس من أنظمة التعليم فى التربية الإسلامية فى عصورها الذهبية.

١٢- العناية بدور الكتب للتشجيع على البحث والإطلاع:

لقد عنيت التربية الإسلامية كل العناية بإنشاء دور الكتب العامة والخاصة ولا نبالغ إذا قلنا أن إنشاء المكتبات من مبتكرات التربية فى الإسلام لتشجيع العلماء والطلاب على البحث والقراءة والإطلاع ونسخ بعض الكتب الثمينة وترجمة ما يستحق الترجمة منها واقتناء ما يصح اقتناؤه من الكتب الدينية والعلمية والأدبية والخلقية. ففى دور الكتب الإسلامية كنت تجد الباحثين والمطلعين والناسخين والمترجمين وكان لهم أكبر أثر فى الحضارة الإسلامية والنهضة العلمية.

وأن ننسى لا ننسى ما تركه المسلمون من كتب قيمة دينية وخُلقية واجتماعية وعلمية وأدبية وما كتبوه من الموضوعات التربوية فيها ومن تلك المؤلفات:

كتاب السياسة لابن سينا – وكتاب المدخل للعبدرى – وكتب الإمام الغزالى – والدرارى لابن العديم الحلبى والمقدمة لابن خلدون وكتاب جامع بيان العلم وفضله للنمرى القرطبى والبيان والتبيين للجاحظ و......

وهناك كتب محدودة فى التربية مثل كتاب تعليم المتعلم للزرنوجى وأحكام المعلمين والمتعلمين لمحمد بن زيد وكتاب الفضيلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين للقابسى القيرونى "وهو مخطوط بدار الكتب المصرية" ورسالة المعلمين للجاحظ وترغيب الناس إلى العلم لنفطمونى وآداب المعلمين لابن سحنون.

١٣- وظائف المعيدين فى الجامعات أخذتها المعاهد الأوربية والأمريكية من التربية الإسلامية:

كانت وظائف المعيدين من الأساليب التربوية فى المعاهد الإسلامية القديمة وقد تأثرت الجامعات الأجنبية بالتربية الإسلامية فى انتفاعها بنظام المعيدين فى الجامعات بعد تخرجهم فيها لتمرينهم على مهنة التدريس وتشجيعهم على الاستمرار فى الدراسة والبحث العلمى والاستزادة من العلوم للتعمق فى الدروس والإطلاع والإنتاج فى التأليف والتصنيف وإظهار البحوث العلمية والأدبية والدينية وقد تأثر الغرب بهذا النظام حتى وقتنا هذا.

آراء موجزة تتفق مع التربية الحديثة وعلم النفس:

ولنذكر هنا بإيجاز آراء للغزالى تتفق تمام الاتفاق مع أحدث آراء فلاسفة التربية وعلم النفس فى القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين:

١- مهنة التعليم أشرف المهن وطلب العلم لا يتأتى مع المشاغل.

٢- يجب ألا يعامل الغلمان جميعاً معاملة واحدة فى التهذيب بل يعامل كل منهم وفق مزاجه وطبائعه ويراعى استعداد كل طفل.

٣- يجب أن نبادر بتأديب الطفل من الصغر.

٤- ينبغى تعويد الطفل الاخشيشان فى الطعام واللباس والفراش.

٥- يجب أن يأخذ الطفل حظاً وافراً من الرياضة البدنية واللعب الجميل حتى لا يموت قلبه وتسوء معيشته.

٦- يجب أن يعود الأخلاق الجميلة والعادات الحميدة ويجنب الرذائل والمساوئ ويحفظ من قرناء السوء.

٧- يجب مكافأته على خلق جميل أو فعل حميد يظهر منه والاقتصاد فى لومه وتعنيفه عند وقوع الذنوب.

٨- يحسن التدرج فى ترك الأخلاق السيئة إذا صعب تركها مرة واحدة.

٩- ينبغى ألا يدع المعلم شيئاً من نصح المتعلم وأن يزجره عن سوء الخُلق بطريق التعريض لا التصريح وبطرق الرحمة لا التوبيخ.

١٠- يجب ألا يدع المتعلم فنا ألا وينظر فيه نظراً يطلع به على غايته، ثم يبحر فيه إذا ساعده العمر.

١١- يجب الابتداء بالأهم من العلوم فإن العمر لا يتسع لجميعها.

١٢- ينبغى ألا يخوض المتعلم فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله.

وهذه كلها آراء سديدة ونصائح ثمينة وإرشادات منطقية، نرجو أن يعمل بها المربون والمربيات من آباء وأمهات ومعلمين ومعلمات.

أراء علماء الإسلام فى بعض الغرائز وتربيتها وهى تتفق مع آراء علماء النفس اليوم:

إن من يطلع على ما خلفه علماء الإسلام من كتب يرى كثيراً من الآراء لهم فى الغرائز وتربيتها والدراسات للقوى الإنسانية وصلتها بالتربية الخُلقية. فهم يقولون أن فى الإنسان:

١- قوة للتمييز والتفكير.

٢- وقوة عضلية – تشمل الغضب والنجدة والإقدام وحب التسلط والترفع.

٣- وقوة شهوية تشمل طلب الغذاء وأنواع اللذات الحسية.

ولا يرون شراً فى الشهوات والغرائز إلا إذا زادت على حد الاعتدال فالغزالى مثلاً يرى أن الشهوة – وهى الغريزة – خُلقت فى الإنسان لفائدته وأنها ضرورية فى الجبلة أو الطبيعة.

ويرى عبد الرحمن بن الجوزى فى كتاب الطب الروحانى (ص١٣) أن جميع ما وضع فى الآدمى إنما وضع لمصلحته إما لاجتلاب نفع كشهوة الطعام أو لدفع ضرر كالغضب فإذا زادت شهوة الطعام صارت شرهاً فآذت. وإذا زاد الغضب أخرج إلى الفساد.

وأننا نوافق الغزالى وابن الجوزى فى أن الغرائز خلقت فى الإنسان لمصلحته وأنها ضرورية له، ويجب ألا تزيد على حد الاعتدال. ومعنى هذا أنه يجب تعديلها وتربيتها وتعليتها كما يقول علماء النفس اليوم.

ويرى ابن الجوزى أيضاً أن الأصل فى الأمزجة الصحة وأن العلل طارئة وأن أقوم التقويم (أى أحسن التربية) ما كان فى الصغر فإذا ترك الولد وطبعه فنشأ عليه ومرن كان رده صعباً.

وأننا نعتقد أن هذه الآراء لا يستطيع أحد أن ينكرها من علماء النفس والتربية اليوم.

والغزالى يرى أن الطفل يتقبل الخير والشر ولا يدرك فى طفولته الفرق بينهما حيث يقول: "وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعترى المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه." فالغزالى يقول بأثر التربية فى تهذيب الغرائز والميول الفطرية وتربيتها وتشجيع ما يستحق منها التشجيع. وتعديل ما يحتاج إلى تعديل ولا يقول بكبتها، ويعتقد أن كل طفل يولد معتدلاً قابلاً للخير والشر، يتأثر بالبيئة التى يعيش فيها فإن كان فى بيئة يهودية نشأ يهودياً وإن كان فى بيئة نصرانية أو مجوسية كان نصرانياً أو مجوسياً وأن نشأ فى بيت إسلامى كان مسلماً يدين بالإسلام.

وهذا هو المقصود بقول الرسول الكريم: "كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" وهى آراء ناضجة صحيحة لفلاسفة الإسلام نادوا بها منذ قرون طويلة وهى لا تختلف عن آراء المحدثين فى علم النفس اليوم.

ولا يمكننا أن ننسى قول الغزالى: "أن النواة ليست بتفاح ولا نخل قبل أن نتعهدها بالغرس والتربية على أن التربية لا يمكنها أن تغير من استعداد النواة لقبول بعض الأحوال دون بعضها الآخر فتعجل من نواة النخل تفاحاً ومن نواة التفاح نخلاً. فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلاً ولو أردنا سلاستهما وقودهما (وقيادتهما) بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه".

ومن هذا نرى أن الغزالى أدرك تمام الإدراك الوراثة وقوانينها والتربية وأثرها والكبت وضرره وأقر بأثر التربية والتهذيب، فنواة التفاح تنبت تفاحاً ونواة النخل تنبت نخلاً، ولكنهما فى حاجة إلى من يتعهدهما بالغرس والتربية والرقابة والعناية. على أن التربية لا تستطيع أن تغير الوراثة. وتجعل من نواة النخل تفاحاً ومن نواة التفاح نخلاً ومعنى هذا أن للوراثة أثراً كبيراً فى حياة الإنسان ومظهره فهو يشبه أباه وأمه وأو جده أو جدته من الطرفين فى الصفات الجسمية والعقلية وأبناء الأذكياء أذكياء وأبناء المعوقين معتوهون. وقد ثبت هذا كله فى علم النفس العام. ومن قوله نستنبط: أن قمع الغضب وقهر الشهوة وكبت الغرائز بالكلية تضر الطفل كل الضرر، ومن الخير أن نقوده بالإرشاد والنصح والتهذيب والمحاولة حتى نهذب ما لديه من غضب أو شهوة أو غريزة جامحة.

وقد اهتم فلاسفة الإسلام بالفروق الفردية بين الأطفال تلك الفروق الناشئة عن الاختلاف فى الوراثة أو الاختلاف فى الميول والاستعدادات الفطرية. وأدركوا تلك الفروق الفردية وراعوها فى التربية والتعليم وقاموا بما ينادى به علماء التربية الحديثة فى النصف الثانى من القرن العشرين فى وقت كان يقول فيه أحد الفلاسفة من الأوربيين فى القرن الثامن عشر: "التربية تستطيع أن تفعل كل شئ" ناسياً الوراثة وأثرها والاستعدادات الفطرية لدى النشء وماذا تستطيع التربية أن تفعل مع طفل ضعيف العقل أو معتوه؟

إن التربية الحديثة بما أوتيت من وسائل مشوقة وأنظمة جميلة وطرق جديدة لا تستطيع مطلقاً أن تفعل شيئاً مع هذا النوع المسكين من الأطفال. ولا يمكنها أن تحول المعتوه إلى طفل ذكى أو فائق الذكاء مهما تحاول ومهما تقدم له من العناية والتربية.

وقد كان فلاسفة الإسلام فى دراستهم للغرائز والميول الفطرية متفائلين فلم يقولوا كما قال فلاسفة أوربا فى القرون الوسطى أن الميول الغريزية والطبيعة البشرية فاسدة، بل تفاءلوا كل التفاؤل وبحثوا تلك الميول والغرائز ودرسوها دراسة عميقة، ثم استنبطوا فى نهاية

البحث أن من الممكن تربيتها وتهذيبها، وأن لها فوائد ولا يستطيع أحد الاستغناء عنها، فشهوة الطعام تؤدى إلى المحافظة على الحياة والغريزة الجنسية لو زالت من العالم لحكم على الإنسان بالفناء. ولو فقدت – غريزة الغضب – وهى المقاتلة – ما استطاع النوع الإنسانى الدفاع عن نفسه. وأن يطلع على ما قاله فلاسفة الغرب فى الميول والاستعدادت االفطرية قديماً يجد أنهم نادوا بكبتها وقمعها، والقضاء عليها فى حين أن فلاسفة الإسلام لم يقولوا بالكبت والقمع بل اتخذوا الحد الوسط ونادوا بتربيتها وتهذيبها وتعليتها ورأوا الاعتدال فى معالجتها، هذه هى الفضيلة بعينها. وبهذا الرأى اتفقوا مع المحدثين من علماء النفس فى عصرنا هذا.

وقد وضح الإمام الغزالى أن الرسل – وهم معصومون من الخطأ – لم ينزهوا عن الغضب وأن الرسول الكريمﷺ كان يغضب للحق ويحمر وجهه من الغضب ولكنه مع غضبه كان يتمالك نفسه ويضبط شعوره ولا يصدر عنه إلا الحق دائماً.

وخلاصة القول أن التربية الإسلامية لم تعمل على قمع الغرائز وكبتها ولكنها عملت على تعديلها وتربيتها وتهذيبها وتوجيهها بالإرشاد والنصح إلى الطريق المستقيم وإخضاعها لسلطان العقل والتفكير والحكمة وإدخال القوة الناطقة وهى التفكير لدى الإنسان فى الحكم والتوجيه. فالقدامى من فلاسفة الإسلام كانوا يسبقون القرن الواحد والعشرين بمئات السنين. ومع هذا كانوا يتفقون مع علماء النفس فى هذا القرن فى الوسائل التى بها تربى الغرائز والميول الفطرية فى الإنسان.

التربية الإسلامية وأثرها فى النهضة العلمية والعقلية:

لا يستطيع أحد أن ينكر أن للتربية الإسلامية أثراً كبيراً فى النهضة العلمية والعقلية فقد ترك علماء الإسلام أثراً خالداً فى الفقه الإسلامى وألفوا كتباً مفصلة وموجزة فى المذاهب الأربعة للأئمة: أبى حنيفة والشافعى ومالك وأحمد بن حنبل. وأن من يطلع على تلك المؤلفات النفسية يجد تراثاً ضخماً فى التشريع الإسلامى والعبادات والمعاملات وتحديد العلاقات الروحية والاجتماعية والعملية الخاصة بالإنسان. ويدل ذلك التراث على عظمة علماء الشريعة الإسلامية وقدرتهم النادرة على البحث والتفكير والاستقرار والاستنباط والحكم والتعليل ومثابرتهم العظيمة على الدراسة الفقهية التشريعية التى تتفق مع الدين والعقل والمنطق.

ولم يكتفوا بما ألفوه من كتب قيمة فى الشريعة الإسلامية بل وضعوا قوانين اللغة العربية وقواعدها من النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والعروض والقوافى. واستنبطوا تلك القواعد والقوانين بطريقة مبتكرة دقيقة، تدل على عقل منظم، وتفكير سديد، ورأى ناضج

وإلمام تام بكل ما يتعلق باللغة العربية لغة القرآن الكريم من نثر وشعر. ولم يترك هؤلاء العظماء من العلماء صغيرة ولا كبيرة فى اللغة إلا بحثوها ودققوا الفحص عنها. وتفننوا فى الشعر وبحوره وحددوا أسسه وقوانينه بدقة متناهية.

وفى تفسير القرآن الكريم وشرح الأحاديث النبوية ألفوا كتباً قيمة وشروحاً كثيرة مفصلة ومختصرة فى نواح متعددة تبرهن على ما أوتى الفقهاء وعلماء الإسلام من عظمة عقلية وذكاء فائق وصبر نادر ومقدرة علمية على البحث والتأليف والتبيين والتوضيح.

ولم يكتف العلماء بما ألفوه من الكتب فى العلوم الدينية بل أسهموا فى تدوين آثارهم وأعمالهم العمرانية والسياسية والاجتماعية وتركوا آثاراً خالدة فى كتب التاريخ والجغرافيا وكان لهم أثر كبير فى كتابة التاريخ الإسلامى ودراسة الشعوب والبلدان دراسة جغرافية واسعة.

ولم يكن فلاسفة الإسلام ضيقى العقول محدودى الأفق فى التفكير، بل كانوا واسعى الإطلاع غريزى المادة شغوفين بالعلوم العربية والأجنبية فاطلعوا على كل حضارة قديمة ودرسوها دراسة مستفيضة وقرءوا قراءة عميقة ما كتبه المصريون القدماء والفرس والهنود والإغريق من طب وطبيعة وكيمياء وفلك ورياضة وفلسفة وموسيقى، وأضافوا إلى ما درسوه وما قرءوه كثيراً من الآراء والأفكار والتجارب والنظريات وخاصة فى الطب والطبيعة والكيمياء والرياضة فى عصر الإمبراطورية الإسلامية. وكانت مؤلفات العلماء من المسلمين فى تلك العلوم واضحة وضوحاً تاماً فيها كثير من التجارب وتطبيق النظريات العلمية. ولا نبالغ إذا قلنا أن علماء الإسلام قد خدموا العلوم ببحوثهم العلمية خدمة عظيمة لا يستطيع أن ينكرها أحد. وأن البحوث التى قاموا بها لا تقل فى أهميتها العلمية عما قام به علماء أوربا.

جوانب من التربية الإسلامية

التربية الإسلامية للمسلمين عدة أنواع، تعمل كلها مجتمعة للوصول إلى الأهداف العليا التى مرت بنا، وسبب التنوع أن الإنسان مركب من جسم ونفس والجسم فيه غرائز قوية تعمل على صيانته وعبوره الحياة، والنفس فيها العقل والوجدان والضمير والإرادة والملكات والقوى.. ولكل ما يناسبه من التربية.

وغير هذا نجد الجنس البشرى فيه نوعان: الذكر والأنثى، كما نجد التفاوت البين بين الشعوب فى البيئات والألوان واللغات... والإنسان مخلوق للدنيا وللآخرة، ولكل هذا تنوعت أنواع التربية وكثرت وسميت فى المدارس بأسماء كثيرة: الرياضية والاجتماعية والفنية والدينية... وهكذا كثرت الأسماء، ولكنها فى الإسلام ترتد جميعاً إلى نبع واحد هو الإسلام، فقد تكفل الإسلام بكل أنواع التربية مادة وأسلوباً.

ومن غبط حق الإسلام ما نعمله الآن من إظهار أن التربية الإسلامية هى التربية الدينية فقط، وان سائر أنواع التربية لا تتصل به، ولا يشترط فى معلمها أن يعلم عن الإسلام شيئاً، ولذلك فلا رابطة بينها وبين الإسلام، ولا عجب بعد ذلك أن يفهم التلميذ أن الإسلام مقصور على درس الدين فقط، وأن كل العلوم الأخرى دنيوية لا دخل للإسلام بها، ومن ذلك جاء اصطلاح العلم والدين، وجعل العلم قسيماً للدين، مع أن العلم ينطوى ويندرج تحت الدين، إذ العدل يقتضى أن تربط الخلقة بخالقها، وما دام كل ما يتناوله العلم من مادة يجرى عليها أبحاثه مخلوقاً لله فالواجب الإقرار لله بالخلق، والشكر على ما أودع بالكون من قوى وأسرار تخدمنا وتسد مطالبنا، وترقى بنا وترفه عنا، وإذا فعلنا ذلك وهو حق لله وواجب علينا – سار العلم فى ركاب الدين، ولم نجد ما يخرج عن نطاق الدين، فضلاً عما يختص به الدين مما وراء المادة وبخاصة الحياة الآخرة.

ولذلك فإننا نسمى أنواع التربية بأسمائها الإسلامية، فنقول تربية الإسلام للجسم، تربية الإسلام للعقل، تربية الإسلام للفن، تربية الإسلام للآداب... وهكذا.

والواقع أن التربية الإسلامية لم تغادر جانباً من الجوانب إلا نصحت به وبينت منهجه، لأنها تتطلب من كل فتى أو فتاة أن يشب كاملاً متكاملاً قوى الجسم، قوى العقل، قوى الشخصية، خالياً من العقد النفسية، متوازن العواطف والنوازع، سوى السلوك، مندمجاً مع المواطنين، مستعداً للإسهام معهم فى تطوير المجتمع، والدفاع عن مقدساته، وحماية الوطن والمواطنين بقدر ما يستطيع، مراقباً ربه فى كل الأمور، مستعداً للقائه فى أى وقت يناديه.

أ- تربية الإسلام للجسم

جسم كل إنسان هو آلته التى يستعملها فى الحركة والعمل والسعى والضرب فى الأرض والسياحة والجهاد وفى كل نواحى الحياة...

وإذا كان الجسم عليلاً حد من الحركة والعمل، ولذلك يهتم الإسلام بجسد المسلم حتى يشب سليماً قوياً يتمكن من الضرب فى الأرض للرزق والجهاد فى سبيل الله.

ونلحظ أن الإسلام ينصح بالطب الوقائى قبل الطب العلاجى.

١- فهو أولاً ينصح بالمشى والحركة، ويكره الكسل والفتور. والله تعالى يقول: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ {الملك/١٥} كما يقول: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ {البلد/٤} أى تعب ومشقة، والجسم كلما تحرك وعمل قوى واشتد، وكلما نام وارتخى وألف السكون ضعف وذبل واستوت الحياة بالموت. كما ينصح بالعمل اكسب العيش، ومن بات كالاً من عمله بات مغفوراً له.

ونلحظ أن الإسلام لحبه للعمل لا يجعل يوماً كيوم الجمعة كله للراحة بل يجعل الراحة من العمل قبيل الصلاة وأثناءها، أما متى انقضت فعلى المصلين العودة إلى العمل وفى ذلك يقول الحق جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ، فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ {الجمعة٩/١٠}، والضرب فى الأرض وابتغاء فضل الله هو العمل فى كل ميادين الطب والهندسة والزراعة والصناعة والتجارة والتعليم والصيد والكشف عن المجاهل و... من كل ما يملأ العالم عمارة وإصلاحاً، وإن لنا لأسوة بالرسول الذى كان يدعو ربه فيقول: (اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل) رواه الحاكم والبيهقى وبالنبى داود الذى كان يأكل من عمل يده فى صناعة الدروع.

٢- وهو ينصح بالاعتدال فى الأكل والشرب فالقليل يضعف والكثير منها يتلف وخير الأمور الوسط وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ {الأعراف/٣١} ويقول الحديث الشريف: "ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه فإن كان ولا بد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه" رواه الترمذى. وكما ينصح بالاعتدال فى الأكل والشرب ينصح بالاعتدال فى العمل فلا إجهاد ولا بطالة والحديث الشريف يقول: (إن لجسدك عليك حقاً) رواه البخارى. لأن الذى يجهد نفسه فى العمل يقل انتاجه على مر الزمن.

٣ـ والإسلام يحرم ما يضر بالجسم من أكل محرم كالميتة والدم ولحم الخنزير وسباع الطير والوحوش ويحرم ما أهل لغير الله به وأنه لفسق كالمذبوح على النصب ويحرم شرب الخمور على اختلاف أنواعها لضررها بالكبد، وإذهابها للعقل، وتسهيلها لارتكاب الجرائم، وكذلك كل مخدر للعقل أو مضر للجسم يستجد إلى يوم القيامة ولم يكن معروفاً فى صدر الإسلام، إذ العلة واحدة، وهى الضرر الذى يلحق بالجسم.

٤ـ ونصح الإسلام بل أوجب عدم التعرض للتهلكة وصيانة النفس ونفس الغير، فالحياة نعمة لا يسلبها إلا صاحبها وهو الله تعالى. ويجب احتمال ما فى الحياة من هم وغم وبلاء فلكل صبر ثواب: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ {البقرة/١٥٥} والله تعالى يبين لنا أنه سيبلونا بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وأمرنا بالصبر وعدم الجزع والهلع مما يستوجب التخلص من الحياة، فذلك نقص فى الإيمان ويأس من رحمة الله.

٥ـ والإسلام يشجع أنواع الرياضة البدنية المفيدة والحديث الشريف يقول: (وعلموا أولادكم السباحة والرماية) رواه الديلمى.. كما يشجع الفنون الحربية وما يوصل إليها كسباق الخيل والمصارعة ويتيح الجوائز عليها وكل ذلك لصحة الجسم.

فإذا مرض الجسم نُصح بالتداوى، وكره الركون إلى غير المختصين من الدجالين والمشعوذين والأحجبة والتمائم، ويقول الحديث الشريف: (تداووا عباد الله فإن الله لم يخلق داء إلا له دواء إلا الهرم) رواه أحمد والحاكم وحديث التداوى بالدواء لا ينافى حديث: (داووا مرضاكم بالصدقة) رواه الديلمى. فالمرء يجمع بين الدواء والصدقة فقد تثمر دعوة المحتاج الذى سدت الصدقة حاجته والله هو الشافى بالصدقة والدواء أو بأحدهما.

وأجر التداوى يقع على الفرد أن كان غنياً وعلى المجتمع إن كان فقيراً.

ولا يغيب عن ذاكرتنا أن صحة الإنسان هى رأس ماله الذى وهبه له الله ليعبر الحياة ويؤدى تكاليفها، وأنه إن أهمل فيها وفرط أو أفرط وعب من الشهوات لاستهلك جسمه بأسرع ما يمكن، وباء بغضب من الله وخسر الدنيا والآخرة.

وإن حافظ عليها طال استمتاعه بالحياة وباء برضوان الله فلينظر كل امرئ ما يجب أن يكون.

ولا يغيب عنا أن الله تعالى أمرنا بعدم التطرف فى الفرح والحزن، إذ الفرح الكثير والحزن الكثير يتلفان الأعصاب.

وينهى عن القلق ويأمر بالصبر وانتظار الفرج وفى الأثر: لا يغلب عسر يسرين، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾{الشرح٥/٦} وما على المرء إلا أن يتخذ الأسباب ويترك النتائج لله ويرضى بما قسم الله، والمرء قد يحب شيئاً يتضمن شراً. وقد يكره شيئاً يتضمن خيراً: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ {البقرة/٢٣٢} لا شك فى أن الرضا يريح الأعصاب، وينفى القلق، ويساعد الإنسان على الاستمتاع بالحياة.

ب- تربية الإسلام للغرائز

الغرائز استعدادت فطرية فى الإنسان، يشاركه الحيوان فى بعضها، وكلها ضرورية له، تدفعه للقيام بسلوك خاص إذا كان فى موقف معين، وإليك أمثلة منها:

١- غريزة الخوف للخلاص من الخطر، وكل إنسان وقع فى خطر يشعر بالخوف والرغبة فى الخلاص، وتدفعه غريزته إلى الهرب أو الاستعانة وطلب النجدة.

٢- غريزة المقاتلة وتظهر فى الإنسان إذا وجد عدواً لامفر من نزاله أو وجد إنساناً يحول بينه وبين رغباته.

٣- غريزة البحث عن الطعام وهى للمحافظة على الحياة التى تتوقف على الطعام والشراب ويدفع إليها الجوع.

٤- غريزة حب السيطرة – وكل من آنس من نفسه قوة فى العلم أو الجسم يحب أن يسطر على من هم دونه.

٥- غريزة حب الاستطلاع، وتدفع المرء إلى كشف المجهول والتنقيب والفك والتركيب..

٦- غريزة حب التملك وكل إنسان يحب أن يكون له مكان خاص يأوى إليه وملابس خاصة وأدوات خاصة...

٧- غريزة الاجتماع – فالإنسان يجد من نفسه ميلاً إلى أن يعيش مع جنسه ويتشارك معهم ويتعاون.

٨- وغريزة الجنس وهو ميل كل من الذكر والأنثى إلى الجنس الآخر وهى تدعو إلى التناسل والتكاثر وحفظ النوع.

هذه الغرائز وغيرها يربيها الإسلام بالتوجيه لا بالأشغال ولا الاخماد لأنها كلها ضرورية للإنسان ولم تخلق عبثاً.

١ - فغريزة الخوف يربيها على الخوف من الله تعالى وعدم الاغترار به وارتكاب المعاصى، ويربيه على الخوف من وسائل التدمير كالنار والسيول والبراكين الثائرة، وما لا قبل للإنسان به كالوحوش الكاسرة والأعداء إذا زادوا عن الضعف فلا مانع عندئذ من الفرار، أما الأعداء الذين لم يبلغوا الضعف فهو يطلب من الإنسان ألا يفر منهم بل ينازلهم، ولا يفر إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فإن فر بغير ذلك فقد باء بغضب من الله، ويجب عليه ألا يكون جباناً بل يكون شجاعاً حتى ينتصر أو يستشهد كما يجب ألا يخاف الإنسان إلا مما يخاف منه، أما المشى فى الظلام وتخيل الأشباح فلا.

٢ - وغريزة المقاتلة يوجهها الله إلى الأعداء وإلى كل معتد على النفس أو العرض أو المال أو الوطن أو المواطنين، ولا ينبغى أبداً أن توجه لمن يقف حائلاً دون الرغبات غير المشروعة.

٣ - وغريزة البحث عن الطعام وحب التملك بوجه عام يوجهها الله تعالى إلى أن تكون من مصدر حلال وهو العمل الشريف أو الميراث الشريف كما يوجه الإنسان إلى ضرورة الانفاق من ماله الحلال على النفس والزوجة والأولاد والوالدين والأقارب المحتاجين، ثم يؤدى حق الزكاة بشروطها وحق الصدقات العاجلة وحق الدولة فى الضرائب، كما يوجه إلى تثمير المال فى الحلال وليس منه الربا.

٤ - وغريزة حب السيطرة يوجهها إلى أن يسيطر الإنسان على نفسه أولاً، ثم على الناس بعلمه وأدبه وخدمته لقومه، وشعورهم بأنه يستحق أن يولوه قيادتهم طوعاً لا قسراً.

٥ - غريزة الاجتماع يوجهها إلى التعاون على البر والتقوى، والبعد عن التعاون على الأثم والعدوان، كما يوجهها إلى المشاركة فى جلب المصالح ودفع المضار.

٦ - وغريزة حب الاستطلاع يوجهها للكشف عن المجهول فى الصحارى والغابات وقمم الجبال وأغوار البحار، وما فى الأرض من قوى وأسرار لاستخدامها فى إعمار الأرض وإصلاحها والترفيه عن أهلها، ويكره أن توجه إلى أسرار الناس ودخائلهم إلا أن يكونوا من الخطرين على الدولة أو الأمن.

٧ - وغريزة الجنس يوجهها إلى احترام الجنس الآخر، وإلى الزواج على شرع الله ابتغاء العفة والتشارك فى الحياة وابتغاء الولد، ويحرم أن تستغل فى البغاء على أى وجه كان.

والملاحظ بصفة عامة أن فضائل الغرائز تكمن كما تكمن سائر الفضائل فى التوسط بين طرفين كل منهما رذيلة.

فالجنس مثلاً وسطه الزواج، وحداه الفجور أو الرهبنة.

والمقاتلة وسطها الشجاعة، وحداها التهور والجبن.

والتملك وسطه العمل بالطرق المشروعة، وحداه السلب والنهب وأخذ المال بالباطل أو الزهد فيه والانصراف عنه مما يجلب الفقر والجهل والمرض. . وهكذا......

جـ - تربية الإسلام للعقل (وقل ربى زدنى علم)

لا شك فى أن العقل أثمن ما فى الإنسان، وبه يصير الإنسان إنساناً، ولو تصورنا إنساناً لا عقل له كمن هم فى مشافى الأمراض العقلية لعلمنا أن عدم العقل يعزل الإنسان عن المجتمع ويجعله كالحيوان فى القفص.

وهذا العقل هو سر التكليف بل هو سر التشريف، به كلف الإنسان وشرف على سائر المخلوقات، وبه يتصل الإنسان بربه، ويفكر فى مخلوقاته فيقارن ويستكشف ويجرب، ويبنى ويعمر، ويتقى الأخطار، ويأسر الوحوش، ويجتاز الصعاب، ويحل المشكلات... وما فضل الله تعالى الإنسان وكرمه بسجود الملائكة لأبينا آدم إلا بالعلم فبعد أن علمه الأسماء كلها وطالب بها الملائكة فأقروا بالعجز أمر آدم أن ينبئهم بها، فأنبأهم فأقروا له، فأمرهم الله بالسجود له تكريماً لهذا العلم الناشئ عن العقل.

وقد اهتم الإسلام بالعقل أعظم اهتمام، ونلحظ ذلك فى أن الله تعالى لما ذكر أطوار خلقه الإنسان من سلالة الطين إلى النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام ثم إلى كسوتها لحماً، والإنسان إلى هنا يتساوى فى الخلق مع أى حيوان فقرى – أعقب هذا كله بقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ {المؤمنون/١٤}. إن هذا الخلق الآخر جزء يسير، منه جمال القوام ولكن المهم هو السمع والبصر والفؤاد، وفيه يقول الحق جل وعلا فى سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ {النحل/٧٨}.

فالفؤاد: هو العقل، والسمع والبصر وهما أهم روافد العقل التى تمده بالمعلومات وهذه الروافد أثمن ما خلقه الله فى الإنسان، وإليها وجه عنايته فى إنزال الكتب السماوية والرسل الكرام، وبها يحاسب الإنسان ويكون مسئولاً يستحق الجنة أو النار.

والعقل كائن ينمو بما توصله إليه روافده من الحواس: السمع والبصر والشم واللمس والذوق عن طريق الأعصاب الموردة، وبعد أن يزنها ويخترها ويحكم فيها يصدر حكمه عن طريق الأعصاب المصدرة، فتكون حركة الجسم، وكلما مرت به تجارب ووعاها نما واشتد

وفكر وقدر ودبر واختزن فى تلافيفه صوراً ومعلومات تقدر بمئات الألوف وأمكنه أن يستحضر المراد منها فى لمح البصر.

وهذا العقل على جبروته وقدرته على أن يصل بالإنسان إلى القمر ويغوص فى قاع المحيط ويتسلق قمم الجبال... سهل غزوه عن طريق الغرائز وشياطين الأنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً..

وسهل إضعافه عن طريق الخمور والمكيفات أو الصور الماجنة والأراء الخبيثة فهو وعاء ينضح بما فيه، وكثيراً ما استهوته شياطين الأنس والجن من الصهيونيين وممن يبغون الحياة عوجاً، ويشترون لهو الحديث لإضلال الناس، ومن يبغون العلو فى الأرض والفساد عن طريق الوعود الخلابة والأقوال الكاذبة، ممن يعجب الناس قولهم فى الحياة الدنيا وهم ألد الخصام، وإذا تولوا سعوا فى الأرض فسادا وأهلكوا الحرث والنسل...

ولهذا ولغيره لم يترك الله جل شأنه العقل فريسة لهؤلاء الأفاكين يحشونه بالضلال والخرافات ويبعدونه عن الخالق جل وعلا، بل يجرئونه على انكاره والغرور بما وصل إليه العلم من تقدم مادى محسوس مع تأخر فى الخُلق إلى الدرك الأسفل. وإنما تفضل وزكى الناس وهداهم بالدين وبالرسول الأمين، يعلمهم الكتابة والحكمة ويزكيهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد.

وكل ما سيمر بنا إن شاء الله فى أعمدة التربية وأساليبها سيكون معظمه موجهاً للعقل، ونستطيع أن نذكر أن الهدف من التربية العقلية الوصول إلى أسمى منازل التعقل وهوالرشد، ويكون باستعمال الحكمة والإصابة وذلك بالنور الذى يجعله الله فى الرشيد، يفرق به بين الحق والباطل، وبين الرشد والغى، ويسير به فى الناس فى طريق الحلال بعيداً عن الحرام: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ {البقرة/٢٦٩}.

وسبيل الوصول إلى الحكمة تعلم علوم الشريعة وعلى رأسها القرآن الكريم والسنة الشريفة، ووزن الأمور بمقياسها، والنظر بفكر وتدبر فى كل ما يرد على العقل من علوم ومعلومات فى ضوئها فما وافق الشريعة فحسن وما خالفها فسيئ يجب تركه: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ {الأنعام/١٥٣}.

والله تعالى يبشر عباده الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه – ومعلوم أن الأشياء المسموعة أو المرئية فيها الحسن والأحسن والقبيح والأقبح، ومن بلغ الرشد العقلى ترك

النور نشأ من تعاليم الرحمن فكلها نور وأضواء تسقط على مواقف الحياة فتنير السبيل أمام الراشد، لا يخطئ وإن أخطأ مرة لم يخطئ ثانية وإنما أتعظ وفى الأثر "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين".

ويستطيع المرء بمخالطة العلماء الأجلاء والوعاظ المرشدين الناصحين والأصدقاء المخلصين أن يصل بمعونتهم وإرشادهم ونصحهم إلى أن يكون من الحكماء الراشدين، وأنه لا علم إلا بتعلم، والله يأمر الجاهل بأن يتعلم ويقول: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ {النحل/٤٣} وأهل الذكر هم المختصون بالعلوم والفنون، كما أنه يأمر العلماء بالتعليم وبخاصة ما أنزله فى كتابه ويستنزل اللعنة على كاتم العلم الشريف حتى يعلم ويبين.

وهكذا تسير دولة العلم فى المؤمنين، جاهل يتعلم بالأمر ومتعلم يعلم بالأمر والدورة الدموية العلمية الصحية تنتقل بي الناس من جيل إلى جيل إلى يوم الدين، وقد سبق أن ذكرنا أن الله تعالى يحرم كل ما يضر بهذا العقل من خمر ومخدر، وهو كذلك يحرم كل ما يؤثر فيه من صور أو كلام حديث لغو مُذهب للمروءة مثمر للشر ونعود فنؤكد على ذلك حتى لا يهدم الخبيث الطيب.

ويرجع السر الكامن وراء عناية الإسلام بتربية العقل تربية إسلامية إلى أن تسير القوى المحركة للإنسان: العقلية والعضلية والغريزية بأنواعها كلها فى اتجاه سليم بحيث تتكافأ القوى وتجلب لصاحبها ولغيره السعادة، ما دامت فى نطاق الروح والأخلاق، وسر نكبة العالم أن عضلاته تشتد وعلمه يقوى، ولكن روحه تضعف ولذلك انتشرت الحروب بما تجره من خراب وتشريد وبما تقضى عليه من عمار وإصلاح باختراع آلات التدمير بالجملة.

والمنهج الإسلامى واضح كالشمس تتقبله النفوس بمنتهى الرضا والاطمئنان لأنه فطرى لا تعقيد فيه ولا كهنوت.

وهو كالشجرة الثابتة، بذرتها الشهادتان وجذوها العقيدة والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وساقها العلم الصالح، وفروعها: العبادات والمعاملات والصبر والجهاد وعمل الحلال وترك الحرام.

إن كل من درس الإسلام اطمأن إليه وتبين له صدق الله تعالى فى قوله: ﴿قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ {المائدة/١٥،١٦}.

عوامل التربية فى الإسلام

التربية عملية دائمة فى حياة الفرد لتعديل خبرته وبها يكون الإنسان قادراً على النمو المتجدد الذى يجعله يحيا حياة سعيدة ويكون عضواً إيجابياً نافعاً فى المجتمع.

وكل مجتمع من المجتمعات الإنسانية يرسم صورة لما يريد أن يحققه فى مجتمعه ويضع الأسس لتربية أبنائه حتى يمكن أن ينشئهم على المنهج الذى يحقق الصورة التى يرسمها.

وللتربية عوامل تؤثر فى تربية أبناء المجتمع.

والإسلام دين له مُثله وله أهدافه التى يريد أن يحققها فى هذه الحياة وقد وضع الإسلام الأسس السليمة لتربية أبنائه. وتناولت هذه الأسس جميع نواحى الإنسان الجسمية والنفسية والفكرية.

كما اهتم بعوامل التربية التى تحقق المُثل التى تنشدها.

وعوامل التربية فى الإسلام هى: الأسرة والمسجد والمدرسة والمجتمع – وسنتناول بإيجاز الكلام عن كل واحد منها.

الأسرة:

الأسرة: هى الخلية الأولى فى حياة البشر، والقاعدة الأولى فى بناء المجتمعات والأمم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ {النساء/١}

فمن هذا الازدواج الأول نشأت الأسرة الأولى. وعنها نشأت ازدواجات وأسر وقرابات ورحم. وتكون المجتمع الإنسانى الكبير.

وهذا امر فرغ منه الباحثون المنصفون الدارسون لشئون الحياة والاجتماع وهو حق وصدق: حق من حيث الواقع وصدق من حيث التاريخ والمنطق والتسلسل فى الوجود منذ كان الكل يتألف من اجزاء فتتألف السلسلة من حلقاتها والمدنية من بيوتها.

ويخطئ من يظن غير هذا، أو يحسب أن الفرد بمعناه المطلق هو قوام المجتمع أو الأمة!! فلا يزال هذا الفرد منبتاً ناقصاً حتى يتم الزوج المكمل لوجوده، ولاستمرار هذا الوجود.

فكما أنه يستحيل أن يقوم مجتمع صالح بجنس واحد من الرجال. أو جنس واحد من النساء! فكذلك يستحيل أن يقوم مجتمع صالح بدون أسرة، فإنها ضرورة للحياة، ووعاء طبيعى لبناء الفرد وتماسك المجتمع:﴿ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ {الروم/٣٠}.

إن حاجة الفرد والمجتمع لهذه الإسرة تساوى حاجته إلى الحياة. وصلاحها، ذلك بأن الأسرة هى المهاد الطبيعى الذى يستقبل الوليد، وفيه يجد حاجاته وضروراته ومقومات وجوده المادي والمعنوى، وكمال هذا الوجود فهو يرضع مع لبان أمه وكفالة أبيه معانى الحب والحنان والرحمة والايثار ويجد منهما وفى أخوته معانى النصح والأخوة والعون والبر. فينشأ ملئ القلب ريان النفس بهذه المعانى التى لا تصلح الحياة بدونها أبداً، ومن ثم ينشأ سوياً فتياً لم تصبه عاهات الحرمات وأمراض جدب العاطفة والروح كبعض هؤلاء الذين حرموا هذه النعمة فنشأوا وفى صدورهم نار وحسد وأحقاد تأجج على الحياة والأحياء ودت لو صيرتها رماداً.

أعداء الأسرة والفطرة:

وقد زعم الماديون من أعداء الفطرة والحياة وقوانين الوجود الذين يقولون: "لا إله والحياة مادة" زعموا أنهم يستطيعون أن يستغنوا عن الأسرة ومهاد الفطرة فبعثروا أفرادها واستبدلوا بها المصانع والشوارع ودور الحضانة ومؤسسات ابتدعوها ليست خيراً من الملاجئ التى نعرفها. فما زادوا على أن تعجلوا للولد اليتيم وللأم الثكلى وللأب معاناة هذا التشتت والحرمان والضياع وللأرحام هذه القطيعة والوجيعة بقطع ما أمر الله به.

لقد زعموا أن الأسرة هى الدولة – أى الحزب – أو أنه ينبغى أن يكون ذلك وتوهموا أن ولاء المرء لأسرته ووفاءه لاحبته وأقرب الناس إليه يتعارض مع الولاء لدولته والوفاء لقومه مع أن جميع قوانين البشر ومواصفات الناس تثبت لرفيق الطريق، وزميل العمل، وجار المنزل حقوقاً والتزامات ليست لغيرهم، بل لم يقل أحد أن وفاة جندى لأفراد كتيبته، أو فرقته يقدح فى ولائه لقيادته وأمته، ولكنهم لا يحفلون بعقل ولا منطق وإنما يحرصون على ألا يكون للأمة كيان أو تجمعات بصورة ما تستعصى عليهم أو تقول يوماً.. لا..

ومن أجل ذلك نسفوا بناء الأسرة نسفاً فأخرجوا المرأة للشارع تعمل فى غير حاجة وبعثروا العيال على المحاضن فى غير ضرورة، وألغوا كل ارتباطات والتزامات تربط بين أفرادها، من نفقة أو وصية أو ميراث، كل ذلك لتتكون الأمة من آحاد لا يقوى على المقاومة ولا يستطيع أن يقول فى أمر.. لا.

وبهذا سحقوا الأسرة والفرد معاً، وسحقوا بذلك الأمة جيمعاً فكانوا من﴿ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ {الكهف١٠٣/١٠٤} لقد نسوا أن مثل هذه الأمة التى تتكون من ذرات وفتات لا تكون أمة ولا تثبت ساعة على المقاومة والبلاء إذا اشتدت بها الريح فى يوم عاصف.

عناية الإسلام بالأسرة:

وإذا كانت الأسرة هى القاعدة الأولى فى بناء الحياة البشرية والمجتمع، فإن العناية بها وأحكام بنائها أمر يساوى الحياة نفسها قيمة وأهمية، ومن أجل ذلك كانت محل عناية الحكماء والمصلحين وأهل الفكر ورجال التربية عبر التاريخ..

ولم يبلغ منهج فى العناية بها وأحكام بنائها مبلغ الإسلام، فهو الذى أرسى قواعدها على أثبت الأصول وأحكمها، ورفع سمكها، وكون منها المجتمع الفاضل الذى تخيله واشتهته أحلام الفلاسفة والمصلحين مجتمع الحب والرحمة والتعاون على البر والتقوى، مجتمع العدل والإحسان الذى يمضى عليه العام والعامان لا يختصم إلى الحاكم والقاضى فيه اثنان كما حدث ذلك فى المدينة المشرفة على عهد أبى بكر وعمر. والسر فى هذا يرجع إلى أمرين:

الأول: أنه يغالى بقيمتها وقد جعلها الله آية تستحق الاعتبار والتفكر، ونعمة منه تستوجب حسن الرعاية والشكر، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ {الروم/٢١} وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ {النحل/٧٢}.

فقد نبه سبحانه إلى أن هذه الزوجية والحياة الأسرية شئ هام هو سنة وفطرة وآية ونعمة، فهى تستوجب ذكرا لله، وشكراً له بالحفاظ عليها.. ففى أى دين أو مذهب نجد لها مثل هذه القيمة والحرمة..؟

الثانى: أنه أقام بنيانها على أدق قواعد العلم والبناء على نحو ما تبنى به العمائر الشاهقة والحصون، أو القلاع وأن بناء الأنفس والأمم لأشد وأعضل، ومن المعلوم أن قوة أى بناء تقاس بأمور ثلاثة هى:

١ـ قوة الأساس.

٢ـ قوة الوحدات التى يتألف منها.

٣ـ قوة الارتباط بين هذه الوحدات.

ولهذا الإجمال والمثال توضيح نفصله فيما يلى نتبين منه كيف أحكم الإسلام بناء الأسرة على هذا النحو الذى تكونت به خير أمة أخرجت للناس.

كيف بنى الإسلام خير أسرة وأمة..؟

على مثل هذا الأصول الثلاثة بناها وأرساها.

على الأساس القوى، وبالوحدات السليمة القوية، وبالرباط القوى الذى يؤلف بينها..

١ - أما قوة الأساس:

فقد أرسى الإسلام بناء الأسرة على (الدين) أى طاعة الله وتقواه، ومراقبته والتقيد بأمره، وحلاله وحرامه فى كل شئ؛ فهو الباعث الأول على بنائها وانشائها، المشير الأول فى اختيار طرقها وتحديد مواصفاتها المرجع الأول فى تحديد حقوقها وواجباتها رسكانها من فضائل الحياة وتبعاتها. هوالذى جعلها آية ونعمة كما تقدم، وهو الذى أوجب إقامتها إذا أوجبت أسبابها. قال ﷺ: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج". وقال: "النكاح سنتى فمن رغب عن سنتى فليس منى".

والدين هو المستشار الأول فى اختيار الزوجين وتحديد مواصفاتها، قال ﷺ: "إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه ألا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير". فشرط الدين الرضى والأمانة وهى جماع الدين. وقال: "تنكح المرأة لأربع: لمالها وجمالها وحسبها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يدالك". وهذا أخلص النصح وأصدقه، فإن المال والجمال والحسب والنسب كلها أمور إضافية وكمالات خارجية قد تحول، أما الدين فكمال ذاتى ثابت لا يستغنى عنه أبداً فيه تكون العفة عند الفتنة، والثبات عند المحنة، والسعة عند الضيق، والرضا والتجمل والتحمل وسائر ما يجعل للحياة طعماً ويملأ القلب سكينة وسلاما..

سأل رجل الحسن البصرى فى خاطبين تقدما لابنته أيهما يزوج فقال له: أرضاهما دينا فإنه إن أحبها أكرمها وإن كرهها لم يظلمها. وقديما شكا رجل لعمر أن حبه لزوجته قد خبا وأنه يريد أن يستبدل بها فقال له: ويحك أو كل البيوت تبنى على الحب؟ أين تقوى الله وعهده، وأين حياؤك منه﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ {النساء/٢١}.

فالدين هو المصدر القانونى الذى يحدد لكل فرد فى الأسرة حقوقه وواجباته، والضمير القانونى الذى يضمن لها التنفيذ والطاعة فهو روح يسرى كعصارة الحياة فى قلب الشجرة تترسخ منها الجذور وتستوى منها السوق وتورق منها الفروع وتثمر، لا تقوم الحياة بدونه أبداً ومن ثم كان اختيار الزوج وبناء الأسرة على أساس الدين أجّل نعمة تهدى للأولاد والأحفاد وأجيال الإنسانية كلها، وقديماً أمتن الشاعر على بنيه فقال:

وأول احسانى إليكم تخيرى لماجدة الأعراق باد عفافى

وصدق الرجل فإن الولد سر أبيه وأمه أيضاً، وقد جاء فى الخبر: "تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس" ورحم الله القائل:

أرى كل عـــود نابتاً فى أرومـــة — أبى نسب العيدان أن يتغيروا

بنو الصالحين الصالحون ومن يكن — لآباء سوء يلقهم حيث سيـــرا

وصدق الله العظيم: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾ {الأعراف/٥٨}.

٢ـ أما قوة الوحدات:

فنعنى بها سلامة تكوينها وصلابتها، ذلك أن البناء لا يقوم ولايدوم إلا إذا تألف من لبنات قوية متجانسة فلا يقوم بناء من خليط هش أو غير متجانس: طوبة وخرقة وورقة وخشبة وزجاجة ورمل وهلم.. لا.. لا بد أن يتألف من وحدات متجانسة صالحة يشد بعضها إلى بعض، وهذه الوحدات هنا الأولاد، فإنهم اللبنات التى تتكون منها الأسرة ابتداء ثم الأمة فإن صلحوا صلح البناء، وإلا أسرع إليه الفناء. ومن هنا كانت عناية الإسلام بالولد فى كل أطوار نشأته ومن قبل أن يوجد أو يولد، عناية ربانية لا تجد لها نظيراً فى منهج أو دين قديم أو حديث. ذلك بأن الإنسان فى الإسلام هو خليفة الله فى أرضه علمه وأكرمه وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه، فمن ثم هو يعده لهذه الخلافة.

بل إن الإنسان نفسه هو الهدف الوحيد للإسلام، وهدايته هى مهمة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام من أجله بعث وأنزل عليه القرآن وجاهد وكابد ليخرجه من الظلمات إلى النور لا هم له إلا إنقاذه وإصلاحه وإسعاده، ومن أجل ذلك عنُى به وهو سر فى عالم الغيب وقبل الوجود يوصى بتخير أبويه على أساس الدين ثم صاحبه وعنُى به فى كل أطوار حياته.

عنى به وهو جنين فى بطن أمه فشرع لها الفطر فى رمضان إذا خشيت عليه..

عنى به وهو وليد جديد فشرع تكريمه والاحتفال به.

عنى به وهو طفل فشرع الأحكام لحمايته ووقايته.

عنى به وهو ناشئ وفتى فشرع الأحكام لتأديبه وتعليمه

عنى به فى مماته وبعد مماته كما عنى به فى حياته.

ولذلك تفصيل وشرح يطول، ولكنا نشير إلى شئ منه فيه تنبيه لازم وذكرى والذكرى تنفع المؤمنين...

وسنشير إلى ثلاث: ١ـ تكريمه.. ٢ـ وحمايته.. ٢ـ وتأديبه..

فمن تكريمه:

إن شرع له حُسن استقبال مولده (ذكرا كان أو أنثى) بذكر الله وشكره نؤذن فى أذنه اليمنى، ونقيم فى اليسرى تفاؤلاً بالذكر أن يكون هو أول ما يطرق سمعه، وأن يكون الله فى قلبه أكبر من كل كبير وإيحاء بذلك لمن حوله.. من صغير أو كبير ونعوذه وندعوا له.. فإذا كان يوم السابع أقمنا له حفلاً ووليمة فدعونا الاحياء، وأطعمنا الفقراء وتسمى هذه الوليمة (عقيقة) نذبح فيها عن الذكر شاتين والأنثى شاة لمن استطاع، ثم نُحسن اختيار اسمه ونجرى ختانه.

وكل ذلك تكريم للوليد وطاعة وعبادة وقربى وتشريع من حكيم حميد، فأين نجد مثل هذا التكريم للإنسان.. عند عباد الوثن..؟ أم عند الذين يقولون أنهم من سلالات القرود..؟

ومن حمايته:

أنه شرع له القوانين الملزمة لحمايته وحمته فى رضاعة وفطامه وحضانته ونفقته وتربيته وتعليمه حتى يستوفى رشده ويبلغ أشده ويستقل بكسبه أو نفسه، وربط كل ذلك بتقوى الله والعدل والمعروف والإحسان على نحو لا تجد مثيلاً فى قوانين البشر أو أديانهم.

ومن تأديبه:

أنه عنى بصياغة الولد صياغة ربانية هى أدق من صياغة الذهب والجوهر، وأعظم من صياغة الفولاذ، وهل أثمن من الإنسان وهو إنسان عين هذا الوجود؟ لقد تناوله الإسلام فى أخص أمور حياته ورسم لها فشرع لطعامه وشرابه وثيابه وحفظ لسانه وبصره وسمعه وجوارحه وحواسه حتى قص شعره وظفره وطهوره وقضاء حاجته وغسل بدنه تماماً كما تناوله فى عبادته وصلته بربه وتقواه ومراقبته. كما تناوله فى صلاته بغيره ومعاملاته لوالديه واخوته وأقاربه وجيرانه والناس جميعاً.

وهكذا لم يدع شيئاً يتعلق بظاهر بدنه، أو باطن قلبه إلا طب له وأفتى فيه واستحفظ عليه والديه واعتبره أمانة وكلفه أن يرعاها، فإنه مسؤول عنها ومحاسب عليها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ {التحريم/٦} ونبه إلى خطورة ذلك وأن: "كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه".

ولقد يبدو عجيباً أن يتدخل الإسلام فى الطعام والشراب والثياب.. وهلم جرا.. ولكن يزول العجب حين نعلم أن الظاهر صورة لما فى الباطن ودعوة إليه أيضاً، وأن حياة الناس صورة لما فى قلوبهم.

فالثوب للمرأة قد يكون ثوب صيانة ووقاية، وقد يكون ثوب إغراء وفتنة.. وهو للرجل قد يكون ثوب زينة ووقار، وقد يكون ثوب خيلاء وفساد.

فأباح الإسلام الأول وحرم الثانى، وقال ﷺعن الثوب من الحرير لامرأة "أخاف أن تصف حجم عظامها"، (الا تشف تصف) فتدخل الإسلام فى طول الثوب ومادته ونوعه وتفصيله واستعماله وهو فى كل ذلك منطقى مع رسالته وهى صيانة الإنسان (ذكرا أو أنثى) وحفظه وكماله أن يصيبه الإنحراف أو يقتله الترف.

وكان عمر ﷺ يأخذ الأولاد بالجد ويقول لهم اخشوشنوا وتمعددوا وإياكم ولبس الثوب من الحرير وزى الأعاجم.

وهل يكون التهود إلا فى التبعية لليهود فيما يبتدعون للناس فى المودات والأزياء وصنوف العهر والتهتك لتدميرهم والقضاء عليهم.

وهل يريد الإسلام إلا الحفاظ على سلامة الفطرة وطهارتها ونقائها وصلابتها: ﴿وَاللّـهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا﴾ {النساء/٢٧}.

فالإسلام صلب فيما لا بد منه لكمال النفس الإنسانية وصلابتها.

مرن فيما لا جناية فيه عليها وعلى فطرتها.

ومن ثم فهو يفرض على الوالدين أن يأخذا الولد بالجد والحزم فى كل ذلك ويرخص لهم فيما وراء ذلك.

فهو يكره لأهله أنواع الترف والزينة والاسترخاء والميوعة مثلما يحبب إليهم أن يعلموا أبناءهم السباحة والرمى وأن يثبوا على الخيل وثبا.. وهو حريص على أن ينشئهم على الصدق والعفة والحياء والمروءة وسائر صفات النبل ومكارم الأخلاق، وهو يعتبر البيت مغرسا لها والأمين الأول عليها ومن ثم فهو يحاسب الوالد عليها كما يحاسب الولد

سمع النبى ﷺ، أما تنادى وليدها وترغبه ليقبل وتقول تعال أعطك وتشير إلى شئ ولم ير النبى ﷺ معها شيئاً فقال لها: "أما أنك لو لم تفعلى لكتبت عليك كذبة".

إن البيت هو الوعاء الأول الذى يجد فيه الولد غذاء جسمه وروحه وعقله وقلبه، ومن ثم يتكيف ويتكون وهو يتلقى عن أبويه. ومن هذا الولد يتكون البيت نفسه وتتكون الأمة معه، وهنا مكمن الخضر وأول الداء أو الدواء فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها.

٣ـ قوة الارتباط:

وهى الأصل الثالث الذى يقوم عليه بناء الأسرة وأى بناء وهو يعنى مجموعة الآداب والقوانين والفضائل والقيم التى تؤلف ما بين المرء وزوجه. وما بين الولد ووالديه، وما بين الأخوة وذوى القربى والرحم.

وقد أحكم الإسلام هذا الرباط بأسباب من الإيمان وتقوى الله والرحم. ومن التشريع الملزم فى إيجاب البر والنفقة والوصية والعقل والميراث.

فأما ما بين المرء وزوجه فقد وثقه بالعهد والعقد الذى جعل منه مودة ورحمة، وأوجب على كل منهما رعاية الحرمة وحُسن التبعل، أى القيام بحقوق الزوجية من النصح والنفقة وحسن المعاشرة وحفظ الغيب بغض البصر، وحفظ المال والولد والعرض، وتقرير المساواة فى الحقوق المشروعة قال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ {البقرة/٢٢٨}وقد كان ابن عباس يصلح من زينته فسئل عن ذلك فقال أتزين لها كما تتزين لى، أى أن ذلك حقها وهو فقه دقيق، وقد أكمل الله النعمة بهذا التقرير الأخير فقال: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ {البقــرة/٢٢٨} " فجعل الرئاسة والقيادة للرجل فزاده درجة هى الصوت المرجح عند الخلاف كما هو الشأن فى أى مجتمع فطرى سوى لم يزغ عن الفطرة ولما أضاع ناس هذه الدرجة فقد الرجل سلطانه على الزوج والولد جميعاً فانحل نظام البيت، وفسد الولد ولم يعد يدرى عنه أو يقدر على إصلاحه.

وأما الأولاد ففرض عليهم البر والإحسان للوالدين وقرن العبودية لله وتوحيده وطاعته بذلك وحرم عليهم العقوق وأوجب عليهما النفقة والطاعة، ووصى بهما عند الكبر خاصة كما وصى الأبوين بالتسوية بينهم فى البر والرعاية..

وأما الأخوة وذوو القربى والأرحام، فقد أمر ببرهم والإحسان إليهم وصلتهم وأن قطعوا والعفو عنهم وأن أساءوا، وأوجب عليهم التعاون على البر والتقوى، والتناهى عن الإثم والعدوان، ووثق ذلك بالقوانين الموجبة والوصايا الحكيمة فجعل الدية على العاقلة فى الخطأ وجعل النفقة على الولى الأقرب، وجعل الميراث حقاً، ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾{النساء/٣٣}

وبهذا التوثيق الربانى بني آحاد الأسرة، وهذه الصياغة الربانية والتربية الآلهية لأفرادها.

وعلى هذا الأساس الدينى أرساها عليه الإسلام. قامت الأسرة التى تكونت منها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله. وقادت العالم إلى الخير

والعدل والإحسان والحرية والمساواة وسادت حضارته الإنسانية الزاهرة وهدته إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ {ق/٣٧}

المســـــجد:

يمثل المسجد فى الإسلام عاملاً هاماً من عوامل التربية فهو مكان للعبادة وهو مكان للتربية أيضاً وما العبادة إلا جزء من رسالة المسجد ولذلك فقد كان أول شئ فعله رسول الله عليه السلام بعد أن حط رحاله فى المدينة أن سأل عن المربد الذى نزلت فيه ناقته قائلاً: لمن المربد؟ فأجابه معاذ بن عفراء: إنه لسهل وسهيل ابنى عمرو وهما يتيمان، وسيرضيهما. ورجا النبى أن يتخذه مسجداً وقبل النبى وأمر أن يبنى فى هذا المكان مسجده.

فى هذا المسجد وضع النبى الكريم أسس دعوته الإسلامية وكان يبين لأصحابه خطوطها الرئيسية وتفصيلاتها ويفهمها لهم ويربيهم عليها. ففى خطبته الثانية بالمسجد قال:

(اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً. واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله ما تقولون، وتحابوا بروح الله بينكم. إن الله يغضب أن ينكث عهده).

فالصلة الروحية بين العبد وربه هى أول شئ يجب على المسلم فالله يعبد وحده بإخلاص ولا يشرك به فى عبادته.. وهو الذى يتقى حتى تقاته. ويراعى فى كل عمل يعمله الإنسان سواء كان خاصاً به أم عاماً لمجتمعه ووطنه وهذه خير طريقه لتربية الضمير وكان المربى الأول صلوات الله عليه يلاحظ حال تلاميذه ويخلطهم بنفسه ويتخذ خير الطرق لتربيتهم وتثبيت المعلومات فى أذهانهم وطريقته فى ذلك هى أحدث طرق التربية إذ كان يطلب من المخطئ إصلاح خطئه بنفسه فإن لم يصل إلى ذلك تركه إلى أن يفقد توازنه ويزداد انتباهه فيكون عنده استعداد عظيم لتلقى الصحيح منه.

صلى رجل بمسجد الرسول صلاة سريعة ثم جاء فسلم على النبى وصحابته وهم جالسون فرد النبى عليه السلام ثم قال له: (ارجع فصل فإنك لم تصل) فعاد وصلى كما صلى من قبل وحين رد عليه مثل رده الأول قال له: والذى بعثك بالحق نبياً ما أحسن غيره فعلمنى فأخذ الرسو الكريم يعلمه كيفية الصلاة الكاملة. فالرسول صلوات الله عليه لم يعلمه فى مبدأ الأمر بل طلب منه أن يصلح خطأه بنفسه أولاً. وحين لم يفعل ذلك فى المرة الأولى تركه حتى فقد توازنه وأصبح عنده الاستعداد الكافى لتلقى تعليم النبى له فى يقظة تامة وانتباه كبير فلا ينسى بعد ذلك أبداً بل ويهتم بأن يعلم غيره ما تعلمه.

ومن أساليب التربية التى اتبعها المسجد أن المسلم إذا دخله ووجد حلقة علم جلس حيث ينتهى به المجلس بلا فرق بين إنسان وإنسان فالجميع فى بيت الله سواء.

وكان من أهم الأشياء التى لا حظها الرسول ألا يثقل على أصحابه حتى لا يسأموا فلا يستفيدوا شيئاً، من ذلك ما رواه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما كان الرسول يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا. بل كان كثيراً ما يدخل فى دروسه عنصر التشويق حين يقص عليهم أخبار الأمم السابقة وما آلوا إليه وكان النبى يتعهد أصحابه بالرعاية والعناية يخطب فيهم ويدرس لهم ويبين لهم الجديد من التشريع ويوضح لهم ما غمض فيهم يسألهم أحياناً ليختبر ذكاءهم وانتباههم وكان يجيب على أسئلتهم التى يوجهونها إليه. واستطاع المسجد الأول بهذه الطريقة أن يخرج للإسلام علماء فى الفقه الإسلامى وفى فهم القرآن الكريم ورجالاً فى كل ناحية من النواحى، وقد كان لهم أثر بيّن فى نشر الثقافة الإسلامية فى أنحاء العالم الإسلامى بعد امتداد رقعته واتساع سلطاته. ولم تقتصر رسالة المسجد على التعليم وحده. بل تعدته إلى تقوية الروابط الاجتماعية، وتوثيق الصلات الأخوية، وأشعار أعضاء المجتمع الإسلامى بأنهم أخوة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا لا فرق بين فرد وآخر. فالمسلمون يصلون خمس صلوات كل يوم فى المسجد يقفون متجاورين بدون تفريق فى صفوف منتظمة فإذا ما قضيت الصلاة لاحظوا من تخلف منهم فيسألون عنه ويبحثون عن السبب الذى تخلف من أجله.

وروح المسجد روح تكافل واتحاد. ولأهمية المساجد فى التربية الإسلامية لم يتهاون النبى فى المسجد الذى أنشأ جماعة من المنافقين وكانوا يأوون إليه ليحرفوا كلام الله عن مواضعه ويفرقوا بين المؤمنين ضراراً وهو الذى سماه القرآن الكرم "مسجد الضرار" فلم يكتف الرسول بعدم تلبيته لدعواتهم فيرفض الصلاة فيه بل أمر بإحراقه بدون هوادة لما له من أثر سئ فوجوده موضع خطر كبير على أبناء المسلمين.

واستمر المسجد يؤدى دوره التربوى والتعليم فى جميع العصور الإسلامية وحتى عصرنا الحاضر فى بعض أقسام الأزهر. واقتصر حين انتشرت المدارس على بعض نواحى التربية.

وهكذا استطاع المسجد أن يقوم بدور كبير فى تربية الأمة الإسلامية، وأن يكون ذا أثر قوى لا نزال نحس به ونرجو أن يعود إلى سابق عهده فى التأثير والتربية حتى نصل إلى ما وصل إليه أجدادنا من رقى وتفوق. وحتى نحس بالهدوء الهدوء النفسى والاطمئنان القلبى، والسعادة الحقة.

المدرسة:

نشأت المدرسة فى الإسلام نشوءاً طبيعياً تدريجياً فكانت قليلة العدد فى بداية الأمر وما زالت تنمو حتى أصبحت فى صدر الدولة العباسية كثيرة منتشرة فى البلدان الإسلامية انتشاراً كبيراً. وقد كانت على درجات منها الكتاتيب ومنها بيت الحكمة الذى أنشئ أيام الرشيد والمدارس النظامية ببغداد ودار العلم بالقاهرة، والبيئة الاجتماعية فى المدرسة أوسع من بيئة المنزل وأكثر تنويعاً وذلك ضرورى لتربية الطفل حتى لا ينشأ الطفل مدللاً. والمدرسة توجد توازناً فى حياة الطفل من الناحية الفردية والاجتماعية – والمدرسة حلقة وسط بين البيئة المنزلية والمجتمع الحقيقى – والمدرسة القديمة كان المدرسون الذين يتصدون للتدريس فيها يمتهنون هذه المهنة عن رغبة – والمدرسة الحديثة تعد المدرس إعداداً خاصاً لمهنة التربية.

والمدرسة عامل هام من عوامل التربية لأنها بأسلوب التربية الذى تتبعه تؤثر فى مفاهيم التلاميذ وفى تكوين معتقداتهم كما تؤثر فى سلوكهم.. وعن طريق تقليدهم لأساتذتهم واستهوائهم والإيحاء إليهم يستمر التأثير فى ذلك.

وقد أخذت المدرسة بذلك جزءاً كبيراً من رسالة المسجد فى التربية وهى بذلك تعتبر مكملة له بما لها من إمكانيات لا توجد فى المسجد وبخاصة فى عصور العلم والتكنولوجيا أو هى امتداد للمسجد ولرسالته إذا كانت التربية فيها تسير على أساس العقيدة الإسلامية والتعليم يسير على أساس تحقيق أهداف الإسلام.

المجتمع:

المجتمع عامل هام من عوامل التربية لما له من تنوع وأثر فهو يشمل كل ما فى المجتمع من أصدقاء ومن صحافة وإذاعة مسموعة وإذاعة مرئية وخيالية وهيئات دينية واجتماعية وغير ذلك.

والإسلام يعطى صورة لترابط المجتمع وتأثير بعضه فى بعض فى الحديث الشريف الذى يقول: (مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا ما استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا؟ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً).

ومن هنا فإن الإسلام يضع قاعدة للمجتمع تجعل كل فرد فيه يحس بالإحساس الكامل بالمسئولية (كلكم راع ومسئول عن رعيته) ويفرض على كل مسلم أن يغير المنكر الذى يراه

فى حدود استطاعته (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) وهو بهذا يجعل المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر وكالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا..

وقد بين الرسول الكريم أثر الجليس الصالح وجليس السوء حتى يكون كل فرد على بينة من أمره فلا يصاحب إلا الصديق الصالح (مثل الجليس الصالح والجليس السوء كصاحب المسك ونافخ الكير – لا يعدمك من صاحب المسك إما أن تشتريه أو تجد منه ريحاً طيباً ونافخ الكير يحرق بدنك أو ثوبك أو تجد منه ريحاً خبيثة) ويحذر القرآن الكريم من الاطمئنان إلى الظالمين ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾ {هود/١١٣}

ولقد كان الجلوس فى الطرقات - وما زال – مصدراً للمشكلات الكثيرة فى المجتمع ومحكا لمستوى الأخلاق فى الأمة. ولقد نهى الرسول الكريم أصحابه عن الجلوس فى الطرقات فلما قالوا له: أن ذلك غير ممكن طلب منهم أن يؤدوا حق الطريق بحيث لا يترتب على الجلوس فى الطريق أى مشكلة اجتماعية، بل بحيث تظهر منها فوائد اجتماعية (أياكم والجلوس فى الطرقات قالوا: يا رسول الله مالنا بد من الجلوس فيها. إنما هى مجالسنا نتحدث فيها قال: فإن أبيتم إلا الجلوس فيها فأعطوا الطريق حقه. قالوا: وما حق الطريق؟ قال: غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر).

والحوادث التى يراها الأطفال فى الإذاعة المرئية تظل فى ذاكرتهم مدة أطول من تلك التى يرونها عن طريق آخر – وأنهم يضعون فيها ثقة أكبر مما يضعون فى المعلومات التى يحصلون عليها من طرق أخرى. وأن أكثر الحقائق تذكراً تلك التى تقترن بصفة وجدانية.

ولقد كان للتلفزة أثر كبير فى رفع نسبة جرائم الأطفال حين اتجهت الأفلام إلى الإكثار من المناظر التى تتحدث عن الجرائم ومثل ذلك الإذاعة والصحافة فأن لذلك كله أثراً كبيراً فى تربية الصغار والكبار أيضاً.

هذه الأشياء التى تحدث آثارها فى المجتمع تعتبر عاملاً هاماً من عوامل التربية وعلى المجتمع أن يحيطها بالضمانات التى تكفل التأثير الحسن فى نفوس الأطفال والشباب، وتكون عاملاً طيباً من عوامل التربية فى الإسلام.

وبعد فهذه هى عوامل التربية فى الإسلام وينبغى أن تسير كلها فى الطريق الذى رسمه لها الإسلام تحقق مثله وتنشر أفكاره وتطبقها على نفسها وتكون قدوة للناس جميعاً فبذلك يسعد الفرد ويسعد المجتمع الإسلامى ويسير على هذا النهج من يريد أن يسعد من المجتمعات الأخرى.

العلم والتعليم فى نظر الإسلام

الدين الإسلامى يأمر بتعميم التعليم:

إن الدين الإسلامى دين علم ونور لا دين جهالة وظلمة فأول آية نزل بها الوحى فيها أمر للرسول بالقراءة وتكرير لذلك الأمر وتنويه بشأن العلم والتعليم نلمسه فى اسناد التعليم إلى الله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم).

وقوله تعالى مخاطباً نبيه محمدﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ {طه/١١٤} وقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ﴾ {آل عمران/١٨} فبدأ عز وجل بنفسه ثم ثنى بالملائكة، ثم ثلث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً ونبلاً. وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ {العنكبوت/٤٣} أى ولا يفهمها إلا العلماء المثقفون. وفى مواطن كثيرة نوه القرآن الكريم بشأن العلماء وما لهم من منزلة رفيعة ومكانة سامية فقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ {الزمر/٩} وقال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ {المجادلة/١١} فالعلم مقدس فى نظر الإسلام وهو أسمى شئ فى الحياة لدى المسلمين وللعلماء العاملين منزلة فى الإسلام تلى رتبة الأنبياء، وقد قيل أن العلماء يشفعون للناس يوم القيامة بعد الأنبياء، قالﷺ: (أن مداد العلماء لخير من دماء الشهداء).

وقد دعا الرسول الكريم إلى التعليم وأوجبه فقال: "علموا أولادكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم). ولم يفرق الإسلام فى طلب العلم بين الأبناء والبنات فقد قال رسول الله: (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) من غير تفرقة بينهما، فالدين الإسلامى يطالب المسلم والمسلمة بالتعلم وطلب العلم والعمل به، والاجتهاد فى نشره. ولم يقف الإسلام عند الدعوة إلى نشر العلم والتعليم فحسب، بل دعا إلى الإسلام فى طلب العلم والتعلم والبحث والإطلاع فقال الرسول: (لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل). وقال: (يستغفر للعالم ما فى السموات والأرض)، قال الغزالى تعليقاً على هذا الحديث وأى منصب يزيد عن منصب من تشتغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له: فالعالم مشغول بنفسه والملائكة مشغولون بالاستغفار له.

وكانﷺ، يشجع التعليم بعلمه وقوله فقد كان يطلق سراح الأسرى المتعلمين من الكفار إذا علموا بعض المسلمين القراءة والكتابة حرصا منه على ذيوع التعليم ونشره بين جمهرة المسلمين. ولم يفته أن يعطى المرأة حظها ونصيبها فى تعليم القراءة والكتابة فقد سأل الشفاء العدوية أن تقوم بتعليم زوجه السيدة حفصة القراءة والكتابة ضارباً بذلك أحسن الأمثال لأمته فى وجوب تعليم الفتيات.

وقد خرج ﷺ ذات يوم فرأى مجلسين: أحدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل، ويرغبون إليه، وفى الثانى جماعة يعلمون الناس فقال: (أما هؤلاء فيسألون الله فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيعلمون الناس وإنما بعثت معلما) ثم عدل إليهم وجلس معهم وبذلك ضرب النبى لنا خير مثل فى تشجيع العلم ونشر التعليم والإشادة بفضل المعلمين. وحسبك أن تعلم أن العلم فى نظر الرسول الكريم قوام الدنيا وقوام الدين حيث قال: (من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم) وقال أيضاً: (الناس رجلان: عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما). وقال:: (لموت قبيلة أيسر من موت عالم). وقال: (فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب). وقال: (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع). وقال: (تعلموا العلم فإن تعلمه لله حسنة ودراسته تسبيح والبحث عنه جهاد وطلبه عبادة وتعليمه صدقة وبذله لأهله قربة). وكلها أحاديث تشيد بفضل العلماء العاملين وتحث على طلب العلم وتدل على أن الإسلام يطالب بالتعليم ونشر العلم والتخلص من الجهل والأمية.

وفى الأثر: أفضل الناس المؤمن العالم الذى إن احتيج إليه نفع وإن استغنى عنه أغنى نفسه.

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لكميل: يا كميل العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه. والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق. وقال أيضاً: العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد وقال نظما:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنـــهم	على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسبه	والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعـش حيـاً به أبــداً	الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال أيضاً، وأشار إلى صدره: ان ههنا لعلوماً جمة لو وجدت لها حملة. وقد صدق رضى الله عنه فقلوب الأبرار قبور الأسرار.

وقال عمر: يأيها الناس عليكم بالعلم فإن لله سبحانه رداء يحبه فمن طلب باباً من العلم رداه الله عز وجل بردائه، ولا عجب فبالعلم تحيا القلوب بنور الحكمة كما تحيا الأرض بوابل السماء.

وقال بعض الحكماء: إذا مات العالِم بكاه الحوت فى الماء والطير فى الهواء ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره. وقيل. كن عالماً أو متعلماً أو مستعلماً ولا تكن جاهلاً فتهلك.

وقال الحسن رضى الله عنه: لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم. وهو يقصد أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد الحيوانية إلى حد الإنسانية.

وقيل: تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة وهو الأنيس فى الوحدة والصاحب فى الخلوة والدليل على الدين والمصير على السراء والضراء.. والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة يرفع الله به أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم أدلة فى الخير نقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة فى خلتهم. وبأجنحتها تمسحهم لأن العلم حياة القلوب ونور الأبصار، به يبلغ الإنسان منازل الأبرار وبه يطاع الله عز وجل وبه يعبد وبه يوعد وبه يوحد وبه يمجد وبه توصل الأرحام ويلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء.

وقد خير حكيم من كبار الحكماء بين المال والملك والعلم.

فاختار العلم فأعطى الملك والمال لاختياره العلم. وقد رأى ابن مسكويه والغزالى – وهما من علماء الإسلام – إن العلم غذاء للروح وغذاء للعقل وعَد ابن خلدون العلم والتعليم طبيعياً فى العمران البشرى وقال: (إن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات فى حيوانيته من الحس والحركة والغذاء.. وغير ذلك وإنما تميز عنها بالفكر.. وعن هذا الفكر تنشأ العلوم والصناعات).

وكان الخلفاء من المسلمين يجلون الأدباء والعلماء ويغدقون عليهم المنح والعطايا، ومما يدل على اجلالهم للعلم أنهم يحثون أبناءهم على تلقيه ويرغبونهم فيه فهذا عبد الملك بن مروان يوصى أبناءه فيقول: (يا بنى تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقتم وإن كنتم وسطا سدتم وإن كنتم سوقة عشتم)، فالتعليم فى نظره يجعل السادة فائقين ويصير المتوسطين سادة ويُمكن السوقة من كسب العيش والحياة.

وذاك مصعب من الزبير يقول لابنه: تعلم العلم فإن لم تكن لك جمال كان لك جمالاً وإن لم يكن لك مال كان لك مالاً. فالعلم زينة من لا زينة له ومال من لا مال له.

وذلكم الرشيد يعهد إلى سيبويه بتأديب ابنه المأمون وإلى الأحمر وهو على بن الحسن بتأديب ابنه الأمين. ومن وصيته التى يجب على المربين أن يتخذوها نبراساً لهم فى تربية أبنائهم: (يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة فكن له حيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن وعرفه الأخبار وروه الأشعار، وعلمه السُنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلى فى أوقاته وخذه بتعظيم بنى هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه.

ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة) وفى هذه الوصية تتمثل الحكمة وسداد الرأى فهى تشير إلى منهج من أحسن المناهج الدراسية فمن قراءة للقرآن الكريم إلى دراسة للتاريخ والأخبار، ومن رواية للأدب والأشعار إلى تعلم السنن. ودراسة اللغة وبلاغتها ومن تربية دينية وأدبية وعلمية إلى تربية خلقية واجتماعية. وأن الجزء الأخير من الوصية خير دستور فى المعاملة الطبيعية والعقوبة المدرسية حيث يقول: ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه. وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة.

وقد أفاض الحكماء والأدباء والفلاسفة فى هذا السبيل. فالغزالى يقول: (من أصاب علماً فاستفاده وأفاده كان كالشمس تضئ لنفسها ولغيرها وهى مضيئة) ولبس يغيب عن ذهننا ما قاله بعض حكماء الإسلام: (اطلبوا العلم من المهد الى اللحد، اطلبوا العلم ولو بالصين).

وقيل لأبى عمرو بن العلاء: (هل يحسن بالشيخ أن يتعلم؟ قال: إن كان يحسن أن يعيش فإنه يحسن به أن يتعلم)، ولا شك أن الطفل أولى من الشيخ فى التعلم.

وقال الغزالى رحمه الله[1] العلم يقتنى كما يقتنى المال.. فمن علم وعمل وعلم فهو الذى يدعى عظيماً فى ملكوت السماء، فإنه... كالمسك الذى يطيب غيره وهو طيب والذى يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذى يفيد غيره وهو خال عن العلم وكالمسن الذى يشحذ غيره ولا يقطع والإبرة التى تكسو غيرها وهى عارية وذبالة المصباح تضئ لغيرها وهى تحترق كما قيل:

ما هو إلا ذبالة وقـــدت	تضئ للناس وهى تحتـرق

وقد قيل فى الأثر: تعلموا العلم فإنه سبب إلى الدين ومنبه للرجل ومؤنس للوحشة وصاحب فى الغربة ووصلة فى المجالس وجالب للمال وذريعة فى طلب الحاجة فآثار العلم أنه يؤدى إلى الدين إذا عمل به وينبه الإنسان إلى ما ينفعه وما يضره ويؤنسه فى وحدته ووحشته، ويكون صديقاً له فى غربته ووصلة له فى المجالس والمنتديات ويجلب له المال ويكون وسيلة لطلب ما يحتاج إليه. وهى فوائد جليلة وآثار عظيمة.

قال الشاعر:

يعد رفيع القـوم من كان عالمـاً	وإن لم يكن فى قومه بحسيب
وإن حل أرضاً عاش فيها بعلمه	وما عالـم فى بلـده بغريـب

---

[1] ارجع إلى الأحياء جـ ١ صفحة ٤٩ .

فالعـالم – وإن كـان ذا أصـل وضـيع – يعـد فـى نظـر الإسـلام رفيعـاً حسيباً لأن الـدين الإسلامى لا يفكر فى نسب أو حسب ولكنـه يفكر فـى علم وعمل وتقوى وطهارة. وإذا نـزل بأرض استطاع أن يعيش فيها بعلمه وليس العالم غريباً فى أية بلدة من البلاد، فالعلم أساس للنجاح فى هذه الحياة به يستطيع الفقير أن يصل إلى أكبر مركز وأعلى منصب فى الدول الإسلامية. فبالعلم والتعليم قلت الفروق الاجتماعية فى الإسلام وظهرت المساواة فى تكافؤ الفرص ولم يكن الفقر أو وضاعة النشأة عقبة فى الوصول إلى المراتب السامية والمناصب العالية فى العالم الإسلامى لأن الإسلام دين الديمقراطية الحقة والعدالة المطلقة والمساواة التامة.

إن الفتى من يـقول هأنـذا   ليس الفتى من يقول كان أبى

فالمسلمون يحكم عليهم بعلمهم وعملهم لا بمولدهم وعنصرهم وأصلهم ولا تأثير للآباء والأجداد والأحساب والأنساب والغنى والفقر فى الحصول على المراكز الرفيعة فى الإسلام. فالعدالة واجبة. ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح والكفاية العلمية والخلقية.

ولا جدال فى أن التعليم حق من حقوق الإسلام وضرورة من ضرورات الحياة كالماء والهواء والغذاء فإذا أراد أن يعيش ويحيا وجب عليه أن يتعلم ووجب علينا القيام بتعليمه.

وإذا المعارف أشرفت فى أمة   نالت أمانيها بغير توان

فإذا انتشر التعليم فى أمة من الأمم نالت أمانيها وحريتها واستقلالها وما استطاع مستعمر أن يقف فى سبيلها. فالتعليم أفضل شئ يملكه أفضل الرجال، وخير وسيلة للنهوض بالأمم المتخلفة وأحسن منحة يمكن أن تمنح. والجهل أس الرذائل. فحياة الجهل موت.. والإنسان فى حاجة إلى العلم لأن العلم وسيلة الحياة.

لهذا كان علماء الإسلام يشجعون الطلاب على الدراسة والتعلم وجمع الحقائق واستنباط الآراء والأفكار وتطبيقها عملياً. ويحثونهم على الرحيل والسفر الطويل فى سبيل طلب العلم والمعرفة.

****

لقد أمر الإسلام بالتعليم فى أول آية نزلت على الرسول الكريم لأنـه أول الواجبات وأكبر وسيلة للرقى وإصلاح العالم والشعوب إذا صحب العلم والعمل به، قال الغزالى: لو قرأ رجل مائة ألف سنة. وجمعت ألف كتاب لا تكون مستعداً لرحمة الله إلا بالعمل فالغزالى لا يكتفى بالعلم ولكنه يؤكد أهمية العمل بالعلم. ويبدو ذلك من قوله "الناس كلهم هلكى إلا العالمين.

والعالمون كلهم هلكى إلى العاملين. والعاملون كلهم هلكى إلى المخلصين" فهو يتطلب من المسلم أن يتعلم ويعمل بما يعلم ويخلص فى عمله. ويقصد بالعمل صقل مرآة القلب عن قاذورات الدنيا وخبائث الأخلاق والتحلى بالأخلاق الحميدة من الصبر والشكر وحُسن الخلق وطيب المعاشرة والإخلاص والزهد والتقوى واجتناب الصفات الذميمة من الجزع ونكران الجميل والحسد والحقد والغش والفخر والخيلاء والكبر والرياء..

وقد شعر فلاسفة الإسلام بأثر العمل فى تثبيت العلم وزيادة أثره قال الرسول الكريم "وإنما يزهد الرجل فى علم يعلم قلة انتفاعه بما علم" وقال النمرى القرطبى فى جامع بيان العلم وفضله جـ ١ ص ١١٨ أن عالماً من المسلمين قال: (أول العلم النية ثم الاستماع ثم الفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر) بمعنى أن الإنسان ينوى التعلم ويقصده ثم يستمع لما يقوله العلماء، ثم يفهم أقوالهم ثم يحفظها ثم يعمل بما تعلمه ثم ينشر ما تعلمه من الآراء والأفكار بين الناس. وهذا هو المثل الأسمى فى التربية والتعليم.

ولسنا فى حاجة إلى أن نذكر ثمرات العلم والتعليم ومضار الجهل والأمية فمن المحال أن ترقى أمة من الأمم إلا بتعميم التعليم. ولا وسيلة لإنقاذ الناس من شر الجهل والرذيلة إلا بالعلم والعمل فالمدنية والحضارة والتقدم فى العلم والاختراع والإبداع الذى نراه بأعيننا فى الأمم الراقية نتيجة التربية العامة والتعليم المنتشر بين جميع الطبقات.

وينبغى أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله. وكل من تناول شيئاً وقال للناس: لا تتناولوه فإنه سم قاتل، سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه، ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل الظل من العود، ومتى استوى الظل والعود أعوج؟ ولذلك قيل فى هذا المعنى:

لا تنه عن خلق وتأتى مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ {البقرة/٤٤} ولذلك كان وزر العالم فى معاصيه أكبر من وزر الجاهل إذ يزل بزلته عالم كثير يقتدون به. ومن سن سُنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها. ولذلك قال على كرم الله وجهه: قصم ظهرى رجلان: عالم متهتك وجاهل متنسك، فالعالم يغر الناس بتهتكه والجاهل يغرهم بتنسكه. قالﷺ: (لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً) وقال أيضاً: (من ازداد علماً ولم يزدد هدى، لم يزدد من الله إلا بعداً)

وقال عمر ﷺ: أن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم. قالوا: وكيف يكون منافقا عليما؟

قال: عليم اللسان، جاهل القلب والعمل.

وقال الحسن – رحمه الله – لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجرى فى العمل مجرى السفهاء. وقال رجل لأبى هريرة رضى الله عنه: أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه.فقال: **كفى بترك العلم إضاعة له.**

وقال تعالى: ﴿**كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ {الصف/٣} وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: ويل لمن لا يعلم مرة، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات. وروى مكحول عن عبد الرحمن ابن غنم أنه قال: حدثنى عشرة من أصحاب رسو الله ﷺ قالوا: كنا ندرس **العلم فى مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله فقال: (تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله** حتى تعملوا)، فالدين الإسلامى يأمر بطلب العلم والعمل بما نعلم، فالعلم بلا عمل كشجرة بلا ثمر.

قال الشاعر

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً	إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهداً	فالموبقات لعمرى أنت جانيها
تعيب دنيا وناسا راغبين لها	وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقد قيل: لا تطلبوا علم ما لم تعملوا حتى تعملوا بما علمتم. ومثل الذى يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت فى السر فحملت فظهر حملها فافتضحت: وكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رءوس الاشهاد.

ولكى تعيد البلاد الإسلامية والعربية مجدها القديم وعظمتها السالفة يجب أن تعمل على نشر التعليم وتعميمه بها فالجهل علة العلل هو السبب الأول فى التخلف عن الأيام الأولى أيام المجد والعظمة. والتعليم هو الوسيلة للرقى فى كل ناحية من النواحى والإسلام دين العلم والنور ولا عيب فى الإسلام، فالإسلام يطالب بتعليم الرجل وتعليم المرأة. وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة كما يقول الرسول الكريم فمتى يأتى اليوم الذى يعمم فيه التعليم فى العالم الإسلامى كله؟ ومتى نقضى على الجهل والأمية؟ ومتى نحتفل بدفن آخر أمي من العالم الإسلامى.

التربية والأخلاق فى نظر الإسلام

إن المثل الأسمى فى التربية الإسلامية هو التربية الخُلقية التى تعمل على تكوين رجال مهذبين وسيدات مهذبات، ذوى نفوس أبية وإرادة قوية وعزيمة صادقة وأخلاق عالية، يعرفون معنى الواجب ويقومون به، ويقدرون حقوق الإنسان ويميزون الغث من السمين والحسن من القبيح ويختارون الفضيلة حباً للفضيلة ويجتنبون الرذيلة لأنها رذيلة ويراقبون الله فى كل عمل يعملونه. وحينما أراد الله أن يثنى على نبيه الكريم خاطبه بقوله: "وإنك لعلى خلق عظيم" وقال صلوات الله عليه: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه للرسول الكريم: لقد طفت العرب وسمعت فصحاءهم فما رأيت ولا سمعت مثلك أحدا... فمن أدبك؟ قال رسول الله ﷺ: "أدبنى ربى فأحسن تأديبى".

ولله در المرحوم شوقى حيث يقول:

وإنما مكارم الأخلاق ما بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وإن الغرض من التربية الخُلقية فى الإسلام تكوين رجال كريمى الأخلاق أقوياء العزيمة مهذبين فى أقوالهم وأفعالهم نبلاء فى تصرفاتهم وخُلقهم، ودينهم الحكمة والكمال والآداب والإخلاص والطهارة! فروح التربية الإسلامية هى التربية الخلقية. ولقد أجمع فلاسفة التربية الإسلامية على أن الغرض الخلقى الذى يجب أن يرمى إليه المربى هو الغرض الحقيقى من التربية التى يصح أن يطلق عليه ذلك الإسم وليس معنى هذا أن نقلل العناية بالتربية الجسمية أو العقلية بل معناه أن نعنى بالناحية الخلقية الإسلامية وتكوين الخُلق الكامل كما نعنى بالناحية الجسمية والناحية العقلية والعلمية فالطفل فى حاجة إلى قوة فى الجسم والعقل والخُلق بحيث يعنى بجسمه ويفكر بنفسه ويبحث وراء الحقيقة ويقول الحق ويدافع عن الحق ويخلص فى عمله الإخلاص كله ويضحى بمصلحته فى سبيل المصلحة العامة ويتمسك بالفضيلة ويتجنب الرذيلة.

وقد اتفق علماء التربية الإسلامية على أن العلم الذى لا يؤدى إلى الفضيلة والكمال لا يستحق أن يسمى علماً وأنه ليس الغرض من التربية والتعليم حشو أذهان التلاميذ بالمعلومات بل الغرض تهذيب الأخلاق مع العناية بالصحة والتربية البدنية والعقلية والوجدانية والعملية، وإعداد الطفل للحياة الاجتماعية. فالأخلاق الكاملة هى الغرض الأول والأسمى من التربية الإسلامية فليس الغرض من تعليم الطفل أن نعلمه من العلم ما لم يعلم بل الغرض أن نبث فيه الفضيلة ونعوده الأخلاق الكريمة والآداب الإسلامية والمعاملة الحسنة حتى تكون الحياة طاهرة.. كلها طهارة وإخلاص.

وإن التربية الإسلامية توجب على المدرس أن يذكر دائماً أننا لسنا فى حاجة إلى العلم وحسب ولكننا فى حاجة دائما إلى الأخلاق الفاضلة كما يذكر ان تكوين العادات الخلقية الحسنة فى المتعلمين من التمرن على البر والتقوى والصدق فى القول والوفاء بالوعد والإخلاص فى العمل وأداء الواجب ومساعدة الضعيف والاعتماد على النفس والمثابرة على العمل والمحافظة على الوقت. ومراعاة العدالة فى كل أمر أكثر فائدة لهم من حشو أذهانهم بمعلومات نظرية ربما لا يحتاجون إليها فى الحياة العملية. وكما أن الوقاية خير من العلاج فى عالم الطب فالمحافظة على الأخلاق الفاضلة خير من إصلاحها فى عالم الأخلاق.

وتتطلب التربية الإسلامية من المعلم أن يتخذ التعليم والدروس وسائل نافعة فى تكوين العادات الحسنة لدى المتعلم وفى تهذيب أخلاقه وإحياء ضميره وتقوية إرادته وتربية حواسه وتوجيه ميوله الفطرية إلى الطريق المستقيم وتعويده فعل الخير واجتناب الشر.

العناية بالتربية الخُلقية من الطفولة:

لقد أحسن فلاسفة التربية الإسلامية بأهمية المرحلة الأولى من الطفولة فى التربية الخلقية وتعويد الأطفال العادات الخلقية الحسنة من الصغر واتفقوا جميعاً على ضرورة العناية بتربية الأطفال تربية كاملة فى أول مرحلة من حياتهم. فقديماً قالوا: "التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر، والتعلم فى الكبر كالنقش على الماء" ولا عجب فقد قال فلاسفة التربية الحديثة فى القرن العشرين أن الطفل يأخذ الطابع الذى يلازمه طول حياته فى السنوات الخمس الأولى. وفى هذا المعنى قال ابن الجوزى فى كتابه "الطب الروحانى": أقوم التقويم ما كان فى الصغر فأما إذا ترك الولد وطبعه فنشأ عليه ومرن كان رده صعباً" ومعنى هذا أن التربية الخلقية المثلى يجب أن تبدأ فى البيت والأسرة من الصغر ولا يترك الطفل من غير تربية وتقويم وتهذيب بل يربى فى الطفولة حتى لا يعتاد عادة من العادات القبيحة فأنه إذا ترك وطبعه وأهمل ولم يهذب واعتاد عادات سيئة كان من الصعب رده عن تلك العادات وحمله على تركها فالوقاية خير من العلاج.

وسائل التربية الخُلقية فى الإسلام:

إن للتربية الخلقية فى الإسلام وسائل منها:

١-الطريقة المباشرة وهى طريقة الوعظ والارشاد والنصح وذكر الفوائد والمضار بأن توضح للمتعلمين الأمور النافعة والضارة وتعظهم وترشدهم إلى الخير وتحثهم على التحلى بمكارم الأخلاق وتجنب الرذائل. وكثيراً ما يستعمل الشعر للأغراض الخلقية لأوزانه الموسيقية وعباراته الجميلة وقافيته المؤثرة وقوة تأثيره فى النفوس. ولهذا تجد الكتب

الإسلامية فى الأدب والتاريخ مملوءة بالحكم والوصايا والمواعظ ويتبع الأمريكيون بالولايات المتحدة هذا الطريقة فى التربية ولنذكر هنا بعض الحكم والوصايا المعروفة فى تربية الأطفال تربية خلقية.

الأدب خير ميراث، وحسن الخلق خير قرين، والتوفيق خير قائد، والاجتهاد أربح بضاعة. ولا مال أعود من العقل. ولا مصيبة أعظم من الجهل ولا ظهير اوثق من المشورة. ولا وحدة أوحش من العجب.

وقد أوصت أعرابية ابنها وقد أراد سفراً فقالت:

"أى بنى إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة بين المحبين. وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً. وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام... وإياك والجود بدينك والبخل بمالك. وإذا هززت فاهزز كريماً يلن لهزتك. ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها. ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به وما استقبحت من غيرك فاجتنبه فإن المرء لا يرى عيب نفسه... والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم. ومن جمع العلم والسخاء فقد أجاد ريطتها "ملاءتها" وسربالها".

٢- الطريقة غير المباشرة فى التربية الخلقية وهى طريقة الإيحاء كأن يلقن الأطفال أحسن الشعر فى الحكم وأحسن النصائح والأخبار ويمنعوا النظر فى الشعر السخيف وما فيه من ذكر العشق وأهله. ولا عجب فقد كان علماء التربية الإسلامية يؤمنون بأثر هذه الحكم والنصائح والقصص فى تهذيب أخلاق الأطفال لأنها تعتمد على الإيحاء الخارجى وقد ثبت فى علم النفس أن له أثراً كبيراً فى تربية الأطفال فهم يصدقون كل ما يسمعون ويثقون فى كل ما يقرءونه فى كتبهم. ويتأثرون بتلك الأشعار والحكم العربية والوصايا الخلقية. وفى استطاعة المدرس أن يوحى إلى الأطفال كثيراً من الأخلاق الفاضلة كالصدق فى القول والأمانة فى العمل والعدالة فى الحكم والصراحة والشجاعة والإخلاص.

٣- الانتفاع بما لدى الأطفال من ميول وغرائز فطرية فى تربيتهم تربية خلقية فعندهم مثلاً ميل لمحاكاة من يتصلون بهم فى أقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم. ولهذا كان فلاسفة الإسلام يتطلبون من مؤدب الأطفال أن يكون متحلياً بالفضيلة معروفاً بالأخلاق النبيلة متجنباً للرذيلة. وفى هذا المعنى قال عتبة بن أبى سفيان يوصى مؤدب ولده:

"ليكن إصلاحك ابنى إصلاحك لنفسك فإن عيوبهم معقودة بعيبك فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح ما استقبحت..." وبالمثل أوصى ابن سينا الفيلسوف الطبيب: "أن يكون مع الصبى فى مكتبه صبية حسنة آدابهم مرضية عاداتهم لأن الصبى عن الصبى ألقن وهو

عنه آخذ وبه آنس" فالتلميذ يحاكى أستاذه وزملاءه قصداً ومن غير قصد فيما يقولون وما يفعلون ويأنس بما يأنسون ويشاركهم فيما يشعرون. ولهذا يوصى ابن سينا باختيار البيئة التى تتصل بالطفل ويتصل الطفل بها واختيار الأطفال المهذبين الذين يختلط بهم فى المدرسة. وقد صدق ابن سينا فى قوله "وثبت فى علم النفس أن الطفل بطبيعته يحاكى ما يحدث فى المجتمع الذى يحيط به حسناً كان أو قبيحاً فهو يحاكى من يعيشون معه أو يتصلون به من حيث لا يشعر ولا يشعرون". لهذا أوصى ابن سينا بما ينادى به علم النفس –اليوم- بأن المقلد يجب أن يكون قدوة طيبة ونموذجاً حسناً حتى لا يترك أثراً سيئاً فى نفس الطفل المقلد.

فللمحاكاة أثر كبير لا فى التعليم وحسب بل فى التربية الخلقية والعقلية أيضاً. والتقليد عامل رئيسى فى المرحلة الأولى لتكوين العادة فالطفل يرى الشئ يفعل أمامه فيحاكيه ويكرره حتى يصير عادة له. وأنه فى الواقع يحاكى أبويه وأخواته وأخوته الكبار ولكنه يكسب عن محاكاة الصغار أكثر مما يكسبه من محاكاة الكبار وهذا ما يقصده ابن سينا من قوله: أن الصبى عن الصبى ألقن وهو عنه آخذ وبه آنس.

وقد استعان فلاسفة الإسلام بما لدى الطفل من ميل فطرى للاجتماع بغيره من الأطفال فأعطوه الفرصة فى أن يرسل إلى كتاب أو مدرسة حيث يجد أطفالاً آخرين يشترك معهم فى التعلم ويختلط بهم ويتشجع بما يراه من تقدمهم فينافسهم منافسة شريفة ويجتهد فى أن يصل إلى ما وصلوا إليه من النجاح فى دراستهم وإلى هذا يشير ابن سينا فى كتاب السياسة بقوله: "ثم يحادث الصبيان والمحادثة تفيد انشراح العقل وتحل منعقد الفهم لأن كل واحد من أولئك يتحدث بأعذب ما رأى وأغرب ما سمع فتكون غرابة الحديث سبباً للتعجب منه والتعجب منه سبباً لحفظه وداعياً إلى التحدث به، ثم إنهم يترافقون ويتعارضون.. ويتعارضون الحقوق، وكل ذلك من أسباب المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة وفى ذلك تهذيب الأخلاق وتحريك لهممهم وتمرين لعاداتهم".

فابن سيناء قد نادى بما ينادى به علماء النفس والتربية والاجتماع اليوم من أن الإنسان يميل بطبعه إلى الاختلاط بغيره لأنه اجتماعى بفطرته وشخصيته لا تقوي إلا فى بيئة اجتماعية حيث يستطيع أن يتصل بزملائه ويشترك معهم فى عملهم ولعبهم وسرورهم وحديثهم العذب وحل ما يعترضهم من مشكلات وهذا مفيد له من النواحى الخلقية والجسمية والعقلية، لأن الأطفال المتقاربين فى السن يشعرون بالحرية في أقوالهم وأفعالهم ويتعلم بعضهم من بعض ويترافقون ويتعارضون.. ويتعاونون ويتبارون. ويتناظرون ويتساجلون ويحاكى كل منهم الآخر. وفى ذلك كله تهذيب لأخلاقهم وتنشيط لهممهم وتمرين لعاداتهم واتساع لخبرتهم وتجاربهم وكسب لكثير من الآراء والأفكار.

وكان المربون من المسلمين يعلمون أن لدى الطفل ميلاً طبيعياً لحب الثناء والظهور فيمدحونه على ما يبدو منه من قول حسن أو فعل جميل ويشجعونه على الاستمرار حتى يحافظ على منزلته لديهم ويجتهد فى إصلاح نفسه دائماً. ولم يكثروا من اللوم والذم والتوبيخ حينما يظهر حبه لنفسه، ورغبته الشديدة فى الأكل والشرب والملابس الجميلة لأن الإكثار من التأنيب يميت قلب الطفل. وإن حب النفس والنهم من الصفات الممقوتة إذا زادت على حدها بعثت الأثرة فى نفس الطفل، ولهذا نصحوا المربين بالتقليل من التوبيخ واللوم واستعمال الحكمة فى معاملته فإن كلمة صغيرة من المدح والثناء والتشجيع وحسن الظن تصلحه وتهذبه وتقوّم خلقه لأنه يحب الثناء بفطرته ويكره اللوم وتثبيط الهمم وإساءة الظن به.

تكوين العادات الحسنة فى الأطفال منذ الصغر:

لقد نادى فلاسفة التربية الإسلامية بما ينادى به علماء النفس والتربية والأخلاق اليوم من تكوين العادات الحسنة فى الطفل منذ الصغر كأن تعوده التبكير فى النوم والتبكير فى الاستيقاظ وتشجيعه على المشى والحركة والرياضة البدنية ونعوده ألا يبصق فى مجلس ولا يمخط أو يتثاءب بحضرة غيره ولا يضع رجلاً على رجل وألا يكذب ولا يحلف البتة لا صادقاً ولا كاذباً وأن يتعود طاعة أبويه ومعلميه.

وهى كلها عادات صحية واجتماعية وخلقية يجب على المربين أن يبذلوا جهدهم فى بثها فى نفوس الناشئين من عهد الطفولة أى فى الوقت الذى يكون فيه المجموع العصبى للطفل أشد مرونة وأكثر استعداداً للتكيف. وقد قيل: من شب على شىء شاب عليه، وكما يكون الطفل يكون الرجل.

وتتطلب التربية الإسلامية من المربى أن يتخذ الدروس وسيلة لتكوين العادات الحسنة لدى المتعلم وتهذيب أخلاقه وتعويده فعل الخير واجتناب الشر وتربيته تربية كاملة.

٥ ـ لا يمكننا أن ندعى أن المدرسة الإسلامية وحدها تستطيع أن تقوم بتربية الطفل تربية خلقية كاملة فهناك شركاء يشتركون مع المدرسة ولهم أثر كبير فى تربية الطفل كالبيت والمجتمع. فلكى نصل إلى المثل الأسمى من التربية الخلقية للأبناء والبنات.. يجب أن يقوم البيت بواجبه نحو هذا النوع من التربية ويجب أن يكون المجتمع كاملاً لا يهدم ما يؤسسه البيت أو تبنيه المدرسة.

ولا يمكننا أن ننسى أن علماء الإسلام قد عنوا بالتربية الخلقية كل العناية فعلموا على تقويم المعوج من الأخلاق بالقدوة الحسنة والتفاهم على انفراد وانتهاز الفرصة الملائمة

للتهذيب وكانوا كالطبيب الذى لا يعطى الدواء ألا عند المرض وكالأم الحكيمة التى لا تقدم لابنها الغذاء إلا فى وقته حينما يشعر بالجوع.

وأن من يتعمق فى التربية الإسلامية يرى أن الغرض الأسمى منها تكوين الأخلاق وتربية الروح فكل درس يجب أن يكون درس أخلاق وكل معلم يجب أن يكون معلم أخلاق وكل مؤدب يجب أن يفكر فى الأخلاق الدينية قبل أى شىء آخر.

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن التربية الإسلامية كانت تتطلب من المربى دائماً أن يكون المثل الأسمى للأخلاق كى تثمر العظة ويكون قدوة حسنة للمتعلمين فالخلق الكامل عماد التربية الإسلامية. والغرض من الحياة هو الأخلاق الكاملة.

ولا نبالغ إذا قلنا إن المسلم الكامل هو الرجل المهذب الذى يطيع الله ورسوله ويحب أخاه كما يحب نفسه ولا يؤذى جاره ولا يمس شعور غيره ولا يحقد على أحد ويجتهد فى أن يكون عادلاً فى حكمة، ومحال أن يتذكر السيئة وينسى الحسنة. وهو الصبور على تحمل المشاق الذى لا يبالى أبداً بالآلام. يستسلم للموت لأنه مقدر ويعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً. يرجع إلى الحق ولا يتمادى فى الباطل. يحترم الدين ويعمل به. يوقر رؤساء الدين وينظر إليهم بعين كلها الإخلاص والإجلال.

المسلم الكامل هو رجل الحق والصدق والوفاء والإحسان والإيثار سهل الخلق، مخلص فى عمله حسن فى نيته، هو فاعل الخير ذو الهمة العالية والأخلاق السامية، يتحلى بكل فضيلة، ويتجنب كل رذيلة.

وأن الغرض الأساسى من التربية الإسلامية أن يحيا الإنسان حياة طاهرة كلها إخلاص وطهارة، ومن الممكن أن نلخص ذلك الغرض فى كلمة واحدة هى:

"الفضيلة"

ومجمل القول قد وفق علماء التربية الإسلامية فى الانتفاع بالعوامل المؤثرة فى التربية الخلقية فانتفعوا بما لدى الأطفال من الميول والغرائز الفطرية فى تكوين أحسن العادات الخلقية والوجدانية والعقلية والصحية وانتفعوا بالطرق المباشرة وغير المباشرة فى التربية الخلقية، وكل ما نأخذه عليهم هو أنهم كانوا يميلون إلى الطرق المباشرة كالوعظ والإرشاد وحفظ الأشعار، أكثر من غيرها، ولا يستطيع أحد أن ينكر ما انتفعوا به من الميول الفطرية والإيحاء والقدوة الحسنة والمحاكاة والمنافسة الشريفة، وتكوين العادات الحسنة من الصغر فى الأطفال فنجحوا نجاحاً باهراً فى التربية المثالية الخلقية.

دستور الغزالى فى تربية الطفل:

يتفق الغزالى مع ابن سيناء فى أن الوقاية خير من العلاج والواجب تعويد الطفل العادات الحميدة منذ الصغر حتى يعتادها فى الكبر يقول الغزالى[1]: ".. أعلم أن الطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها. والصبى أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة.. فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة، وأن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك.. وصيانته[2] بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من قرناء السوء... ومهما رأى فيه مخايل التمييز "فانه" ينبغى أن يحسن مراقبته وأول ذلك ظهور أوائل الحياء فإنه إذا كان يحتشم ويستحى ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض فصار يستحى من شىء دون شىء، وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على الأخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ فالصبى المستحى لا ينبغى أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه.. وأن الصبى إذا أهمل فى ابتداء نشأته خرج فى الأغلب ردئ الأخلاق كذاباً حسوداً سروقاً نماماً لحوحاً ذا فضول وضحك وكيد مجانة، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ثم يشغل فى المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس فى نفسه حب الصالحين ويحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله... ثم مهما ظهر من الصبى خلق جميل وفعل محمود فإنه ينبغى أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح ويمدح بين أظهر الناس. فإن خالف ذلك فى بعض الأحوال مرة واحدة ينبغى أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه.. ولاسيما إذا ستره الصبى واجتهد فى اخفائه... وإن عاد ثانية ينبغى أن يعاتب سراً... ويقال له إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا.... فتفضح بين الناس.

ولا تكثر القول عليه بالعتاب فى كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه. وليكن حافظاً هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحياناً والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح.. ويعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل، ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والده.. بل يعود التواضع، وإكرام كل من عاشره والتلطف فى الكلام معهم.. ويعلم أن الرفعة فى الإعطاء لا فى الأخذ وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة وإن كان من أولاد الفقراء يعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة وإن ذلك من دأب الكلب، فإنه يبصبص فى انتظار لقمة والطمع فيها...

---

(١) انظر إحياء علوم الدين. الغزالى جـ ٣ ص ٦٢.
(٢) يقصد صيانة الأب لابنه.

وينبغي أن يعود ألا يبصق في مجلسه ولا يتمخط ولا يتثائب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلاً على رجل، ولا يضع كفه تحت ذقنه، ولا يعمد رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل ويعلم كيفية الجلوس ويمنع كثرة الكلام، ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة.. ويمنع الحلف رأساً صادقاً كان أو كاذباً حتى لا يعتاد ذلك في الصغر.

ويمنع أن يبتدئ بالكلام ويعود ألا يتكلم إلا جواباً وبقدر السؤال وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سناً، وأن يقوم لمن فوقه، ويوسع له المكان ويجلس بين يديه، ويمنع من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والسب ومن مخالطة من يجرى على لسانه شيء من ذلك، فإن ذلك يسرى لا محالة من قرناء السوء وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء..

وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبي ومهما بلغ سن التمييز ينبغي ألا يسامح في ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان.

فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى فإن الصبي بجوهره خُلق قابلاً للخير والشر جميعاً وإنما أبواه يميلان إلى أحد الجانبين قالﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه".

وإني أقول صراحة من غير تعصب للغزالي بأن هذه الآراء كلها ثمينة في عالم التربية الخلقية الحديثة اليوم، فهو ينصح بإبعاد الطفل عن قرناء السوء ويقول إن الوقاية خير من العلاج والتربية والتهذيب من أهم الأمور وأوكدها. ومن الذي يشك في أن الطفل أمانة عند والديه وأثمن شيء في الحياة؟ ومن الواجب المحافظة على هذه الأمانة. وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة قابل للخير والشر، فإن عود الخير وعلمه من الصغر نشأ عليه واعتاده في الكبر وكان سعيداً في الدنيا والآخرة. وإن عود الشر وهو صغير وأهمل بدون تربية وتهذيب كما تهمل البهائم شقي وهلك في حياته. ولصيانة الطفل والمحافظة عليه يجب تأديبه وتهذيبه وتعويده الأخلاق الكريمة وحفظه من القرناء الذين ساءت أخلاقهم وأهملت تربيتهم. وينبغي أن يراقب مراقبة حسنة مهما يكن ذكياً مفكراً يستطيع التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح. ومما يدل على تمييزه وتفكيره ظهوره الحياء على وجهه والاحتشام والاستحياء وترك بعض الأفعال لقبحها. ويرى الغزالي أن الحياء نعمة من الله عليه وهدية إليه تدل على اعتدال خلقه وصفاء قلبه وبشارة تبشر بكمال عقله عند بلوغه. فالصبي المستحي ينبغي ألا يهمل بل يستعان على تأديبه وتهذيبه بحيائه وتمييزه وحسن تفكيره.

وأن أهم مرحلة فى التربية فى اعتقادنا هى مرحلة الطفولة فإذا أهمل الطفل فى بدء حياته خرج فى الأغلب فاسد الأخلاق كذاباً حسودا سروقاً نماماً لحوحاً فضولياً، يميل إلى المؤامرات والكيد والإساءة لغيره. ومن السهل أن يحفظ عن جميع هذه الصفات الذميمة بحسن التربية والتأديب وشغل أوقات فراغه، وتكليفه فى المكتب تعلم القرآن الكريم ودراسة حياة العظماء وحكايات الصالحين والأبرار وأحوالهم ليقتدى بها ويحذو حذوها وينغرس فى قلبه حب الأتقياء والصالحين وإذا ظهر من الطفل خلق جميل، وفعل حميد وجب أن يكرم ويكافأ عليه ويشجع بالمدح عليه بين الناس ليفرح ويدخل السرور فى نفسه. وإذا أخطأ مرة واحدة فالأفضل أن نتغافل عنه، ونتجاهل هذا الخطأ ولا نهتك ستره، ولا نكاشفه ولا نتحدث معه فى هذا الأمر وخاصة إذا ستره الصبى واجتهد فى إخفائه. وأن الغزالى حكيم كل الحكمة فى قوله: "وإن عاد ثانية ينبغى أن يعاتب سراً ويحذر من العودة إلى خطئه" وحكيم أيضاً فى نصيحته للمربى بعدم الإكثار من عتاب الطفل كى يكون للعتاب أثره وإرشاده للأب بقلة توبيخ ابنه. ولم ينس الغزالى أثر الرياضة البدنية كالمشى والحركة فى تربية الطفل ونشاطه ونصحه له بالتواضع وعدم الافتخار على الأقران والإعطاء لا الأخذ. ولم يترك الغزالى شيئاً من الآداب العامة كآداب الجلوس والكلام والاستماع ومعاملة غيره من كبار السن وإطاعة والديه ومربيه والمواظبة على الصلاة وأمره بالصوم أياماً فى رمضان حتى يعتاد الصلاة والصوم فى الكبر.

وخير نصيحة نصح بها الغزالى فى تربية الطفل وتهذيبه العناية بتأديبه فى المرحلة الأولى من حياته فكما يكون الطفل يكون الرجل. فإذا عنينا بتربيته وهو صغير كان مهذباً وهو كبير. ويمكننا أن نقول بحق إن ما قاله الغزالى هنا خير دستور لتربية الطفل تربية خلقية مثالية كاملة وبعبارة أخرى أحسن دستور للتربية الإسلامية.

وإننا نأسف أشد الأسف إذا قلنا إن التربية الخلقية الكاملة وبعبارة أخرى التربية الإسلامية مهملة كل الإهمال فى البيت والمدرسة والمجتمع فى الوقت الذى نقول فيه إن سعادة الأمم لا تتوقف على كثرة دخلها أو جمال مبانيها ولكنها تتوقف على عدد المهذبين والمهذبات من أبنائها وبناتها فبكمال الأخلاق تكون سعادتها وقوتها ونهضتها.

ولا يمكننا أن ندعى أن المدرسة وحدها تستطيع أن تقوم بتربية النشء تربية إسلامية خلقية كاملة. فهناك المنزل والبيئة الاجتماعية يشتركان مع المدرسة ولهما أثر كبير فى التربية الخلقية. فلكى نصل إلى الخلق الإسلامى الكامل يجب أن يقوم البيت بواجبه وتؤدى المدرسة واجبها، ويكون المجتمع كاملاً لا يهدم ما يؤسسه البيت أو تبنيه المدرسة حتى نستطيع أن نؤدى رسالتنا الخلقية فى هذا العصر.

وإن التربية الإسلامية توجب علينا أن نذكر دائماً أننا لسنا فى حاجة إلى العلم وحسب، ولكننا فى حاجة إلى كثير من الأخلاق الفاضلة فالعلم كثير والكتب لا نهاية لها ولكن الأخلاق النبيلة اليوم نادرة وهى التى تنادى بها التربية الإسلامية وتطالب ببثها فى نفوس النشء فى كل نوع من أنواع التعليم حتى نستطيع أن نؤدى رسالتنا وواجبنا خير أداء.

وإننا لا نقصد بالتربية الخلقية أن نلقن أبناءنا وبناتنا الفضائل ومحاسنها والرذائل ومساوئها بل نريد التفكير فى تهذيب أخلاقهم حينما تبدو الفرصة عرضاً فى أى مكان يحلون به. نريد العمل على تقويم المعوج من الأخلاق بالقدوة الحسنة والمثل الكامل، والتفاهم برفق والتكلم على انفراد فيكون مثل المربى الطبيب الذى لا يعطى الدواء إلا عند المرض والأم الحكيمة التى لا تقدم لابنها الغذاء إلا فى وقته حينما يشعر بالجوع.

ويجب أن يضع الآباء والأمهات والمعلمون والمعلمات التربية الخلقية والروحية نصب أعينهم دائماً ويفكرون فى التربية الكاملة والأخلاق الإسلامية قبل أى شىء آخر. ولكى تثمر العظة يجب أن نكون قدوة حسنة ومثلاً عالياً لأولادنا لأن فاقد الشىء لا يعطيه. وأعتقد مخلصاً أن أكبر أمر يجب أن نفكر فيه فى الوقت الحاضر هو إيجاد رجال مهذبين وسيدات مهذبات وتكوين شباب مهذب مثقف كريم الأخلاق ونصل بالمجتمع إلى الكمال الخلقى الذى نرجوه وننشده فليست مشكلاتنا هى الجهل والفقر والمرض وحسب ولكن مشكلة المشكلات هى الأخلاق وتهذيبها. بين أطفال اليوم ورجال الغد، من الطفل فى المهد إلى الطالب فى الجامعة.

فإذا أردنا أن ننهض ونعيد مجدنا الإسلامى القديم وعظمتنا التليدة فعلينا أن نفكر فى العلم ونشره والتربية وتعميمها والأخلاق وتهذيبها فالأمم لا ترقى بالمال أو الحصون ولكنها ترقى بالعلم والأخلاق.

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خراباً

فبالعلم والتربية الخلقية نستطيع أن نعيد مجد المسلمين فى عصورهم الذهبية والحضارة الإسلامية والعربية ونقود العالم فى الحاضر والمستقبل كما كنا نقوده فى الماضى.

الإسلام وتعليم المرأة

لقد فرض طلب العلم على المرأة كما فرض على الرجال فى الإسلام فقد سوى الدين الإسلامى بين المرأة والرجل فى الأمور الروحية والواجبات الدينية ولم يفرق بينهما فى العلم والتعلم قال الرسول الكريم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» من غير تفرقة بينهما فى طلب العلم. فالعلم مقدس فى الإسلام وطلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة.

وقد كان للمرأة العربية فى الجاهلية الحق فى التعلم وكان بين النساء حاتبات وشاعرات. وحينما ظهر الإسلام بدأت الحياة العقلية تنشط وتحيا لدى العرب وكسبت المرأة حقوقاً اجتماعية لم تكن لها قبل الإسلام فنهض التعليم بين النساء. ووضح الكُتّاب والمؤرخون أسماء المسلمات المتعلمات اللاتى كن يعرفن القراءة والكتابة فى صدر الإسلام. فأثبت البلاذرى أن السيدة حفصة زوج النبىﷺ كان تقرأ وتكتب وعائشة بنت سعد كانت تعرف القراءة والكتابة، والسيدة عائشة بنت أبى بكر كانت تقرأ المصحف وتعلم الكثير. قال رسول الله ﷺ"خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء" أى البيضاء وقد قال فى شأنها عروة بن الزبير: "ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشه" وقد روت عن النبىﷺ ألف حديث.

ومن النساء المسلمات النابغات: الخنساء وهى شاعرة عرفت بجودة الشعر والوطنية الصادقة والوفاء والتضحية والسيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنه، وهى شاعرة أديبة عالمة بضروب الإيقاع، وسيدة الناقدين وكان الشعراء يفدون على دارها من كل حدب وصوب للمباراة بالأشعار فى حضرتها، وقد خطت عائشة بنت طلحة خطوات السيدة سكينة فاشتهرت بنقد الشعر والغناء واجتمع لديها الأدباء والشعراء والرواة للمناقشة فى الأدب والشعر والرواية.

وإن الكتب العربية مملوءة بأسماء المسلمات النابغات فى العلوم الدينية والأدبية والطبية. وأسماء الجوارى الشهيرات فى الآداب والفنون.

وقد اشتهرت المرأة المسلمة بالصدق فى عملها والدقة فى روايتها وأخذ أفاضل العلماء برواياتها. وقد قال الحافظ الذهبى - وهو محدث عظيم - (وما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها) ومن النساء الشهيرات فى عالم الحديث: كريمة المروزية وسيدة الوزراء وكانت من أهم روايات الأحاديث التى جمعها البخارى. وقد ذكر الحافظ بن عساكر - وهو أحد رواة الحديث - أن عدد شيوخه وأساتذته من النساء كان بضعاً وثمانين أستاذة.

وقد سرقت مرة امرأة من قريش من ذوات الحسب والنسب فعوقبت عقاب من يسرق فى عهد النبىﷺ ، فحاول أحد المسلمين أن يشفع لها فقال له النبىﷺ: "أتشفع فى حد من حدود

الله؟ ثم قام فخطب فقال: يا أيها الناس إنما أضل من قبلكم أنهم إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد. وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها".

ففي الإسلام مساواة بين الرجل والمرأة في الثواب والعقاب ولا يتميز عليها إلا في أنه مطالب بالإنفاق عليها ورعايتها والدفاع عنها. قال تعالى في موقف المرأة ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ {البقرة/٢٢٨} حينما بدأ النبي ﷺ ينشر قواعد الإسلام ومبادئه نشرها بين الرجال والنساء من غير تفرقة.

وأن من يدرس هذا الموضوع وهو: تعليم المرأة في الإسلام يجد رأيين متناقضين فيه:

الأول: رأى من يقول بتعليم المرأة القرآن الكريم والدين الإسلامي ليس غير وينهى عن تعليمها الكتابة والشعر. وقد بالغ أنصار هذا الرأى وادعوا أن المرأة ناقصة العقل والدين وأن نقصها لا يشجع على تعليمها العلوم. وفي هذا المعنى يقول شاعرهم:

النساء ناقصات عقل ودين	ما رأينا لهن رأى سنياً
ولأجل الكمال لم يجعل الله	تعالى من النساء نبياً

ومنهم القابسي الفقيه القيرواني[1] فهو لا يرى بأساً من تعليم المرأة القرآن والدين لا «الترسل والشعر.. وإنما تتعلم ما يرجى له سلامة ويؤمن عليها من فتنته وسلامتها من تعلم الخط أنجى لها» وهو رأى يسيء الظن بالمرأة ولا تقول به أكثرية المسلمين.

الثاني: رأى من ينادي بتعليم المرأة من المسلمين وهو رأي سديد يستمد قوة عظيمة من استناده إلى أحاديث نبوية تشجع على تعليم المرأة منها الحديث الذى ذكرناه في بدء الموضوع وهو: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» وقوله ﷺ: "وأيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران".

وقد حض النبي ﷺ على تعليم أزواجه الكتابة فقال للشفاء العدوية - وقد كانت تجيد القراءة والكتابة في الجاهلية قبل الإسلام – "ألا تعلمين حفظة رقية النملة كما علمتها الكتابة؟".

وقد انتصر الرأى القائل بتعليم المرأة المسلمية القراءة والكتابة حتى وصلت المرأة إلى أسمى درجات العلم والثقافة ونالت أكبر قسط من التربية والتعليم في العصور الذهبية للإسلام. فكان من النساء المسلمات الكاتبة والشاعرة والطبيبة والمعلمة والقانسية ولم

---

(1) صاحب كتاب "المفضية لأحوال المتعلمين".

يستطيع المترددون الوقوف فى سبيل تعليمها إلا فى البلاد الضعيفة بسبب الاحتلال الأجنبى ففى تلك البلاد حرمت المرأة العلم والنور وحجبت عن الأعين وتركت فى دارها جاهلة لا تقرأ ولا تكتب.

وفى كتب الأدب العربى والتاريخ الإسلامى عدد كبير من النساء المسلمات الشهيرات نذكر منهن:

١ - علية بنت المهدى: وهى شاعرة معروفة بالنبوغ الشعرى والمعانى الرقيقة والعبارة الجزلة.

٢ - عائشة بنت أحمد بن قادم: وقد نشأت بقرطبة ولم يكن فى زمانها فى الأندلس من يماثلها فى فهمها وعلمها وأدبها وشعرها وفصاحتها وعفتها. وكانت تجيد الخط وتكتب المصاحف وتجمع الكتب الثمينة فى خزانتها ودارها وقد توفيت سنة ٤٠٠ هـ.

٣ – ولادة بنت الخليفة المستكفى بالله: وهى أديبة شاعرة ناظرت الأدباء والشعراء وكان قصرها منتدى متسعاً يأوى إليه رجال الأدب والشعراء والوزراء والعلماء والقضاة.

٤ - لبنى: وهى الكتابة فى ديوان الخليفة الحكم بن عبدالرحمن المجيدة للكتابة والشاعرة العالمة بالنحو، المتينة فى الحساب والعلم. وقد توفيت سنة ٣٩٢ هـ.

٥ – فضل: وهى جارية تعلمت فنون الأدب والشعر والغناء وقد اشتريت وأهديت إلى الخليفة المتوكل وعرفت بالذكاء وحضور البديهة والنبوغ فى الشعر الغنائى الذى يحتاج إلى رقة الطبع والعاطفة وقوة التأثير. وقد ظهرت فى عصر تميز بفحول الشعراء كالبحترى وابن الرومى وعلى بن الجهم فلم تقصر عن هؤلاء جميعاً.

٦ - وقد أشار ابن أبى أصيبعه فى كتابه «طبقات الأطباء» إلى طبيبتين مسلمتين درستا الطب واشتغلتا به. منهما الطبيبة زينب طبيبة بنى أود التى عرفت بعلاج أمراض العيون. وكانت النساء المسلمات فى الحروب الإسلامية يقمن بمداواة الجرحى وخدمتهم ومعاونتهم كما تعمل سيدات الهلال الأحمر والصليب الأحمر فى الحروب اليوم.

روى أن أمية بنت قيس الغفارية قالت: أتيت رسول الله فى نسوة من بنى غفار وهو سائر إلى غزوة خيبر فقلنا: يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك فنداوى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا فقال: على بركة الله.

وتقول الربيع بنت معوذ: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ فنسقى القوم ونخدمهم ونداوى الجرحى ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة.

ومن الطبيبات المسلمات أيضاً الطبيبة أم الحسن بنت القاضى أبى جعفر الطنجالى وقد كانت طبيبة مبرزة شهيرة فى الطب كثيرة الاطلاع وأجادت علوماً كثيرة مع الطب.

وأخت الحفيد بن زهر وابنتها كانتا عالمتين بالطب والمداواة ولهما خبرة كبيرة بعلاج أمراض النساء[1].

٧ - وفى العصر العباسى فى عهد الخليفة المقتدر أشارت كتب التاريخ إلى امرأة مسلمة تولت القضاء واطمأن الناس إلى عدالتها فى الحكم واعترفوا بفضلها ومقدرتها القضائية. ومع أن الميدان السياسى صعب وليس بسهل نجد بين المسلمات نساء اشتغلن بالسياسة وناصرن طائفة على أخرى معتمدات على فصاحتهن وعاطفتهن المؤثرة وبديهتهن الحاضرة ومقدرتهن الخطابية الملتهبة كما حدث وقت القتال بين على ومعاوية فقد ناصرت نساء كثيرات علياً مثل هند بنت يزيد الأنصارية والزرقاء بنت عدى بن قيس وأم الخير البارقية وعكرشة بنت الأطروش وقد أعجب معاوية بن أبى سفيان بالنساء اللاتى خاصمته وخطبن ضده، فبعث وطلب بعض الخطيبات منهن لمناقشتهن ومساجلتهن ومعرفة ما عسى أن يقلنه بعد أن قتل على وتولى معاوية الخلافة[2] وفى العصور التى تلت عصر معاوية لعبت الخيزران وشجرة الدر دوراً كبيراً فى سياسة الدولة الإسلامية.

ومما سبق يتبن أن المرأة المسلمة لم تكتف بالدراسة وتحصيل العلم ولكنها انتفعت بعلمها وذكائها وذوقها الأدبى ونشاطها العقلى فى النواحى التى اشتغلت بها كالأدب والسياسة والاجتماع والطب والقضاء والتدريس ولكن عدد المشتغلات بمهنة التعليم من المسلمات كان أكثر ممن اشتغلن بالمهن الأخرى كما هو حادث الآن. وكان العلماء من الرجال يقومون بالتدريس للنساء وكانت النساء تقمن بالتدريس للرجال.

وقد اعترف بعض العلماء والأدباء بفضل النساء المسلمات فقد ذكر ابن خلكان أن أم المؤيد زينب بنت الشعرى كانت عالمة. أخذت العلم عن كبار العلماء وروته عنهم ومنحوها اجازة علمية أدبية وقال: إنها منحته إجازة كتبتها له فى سنة ٦١٠هـ.

وقد قيل: إن طرفة بنت عبدالعزيز بن موسى قد تلقت العلم عن العلماء المشهورين فى عصرها بالأندلس وأخذت عنهم كثيراً من كتبهم. وكان من النساء مدرسات منقطعات لتدريس العلوم الدينية للنساء وللعبادة. هذا وصف موجز لما نالته المرأة المسلمة من التعليم العالى وهذا حظها منه فى وقت حاول فيه دعاة التردد فرض قيود عليها فى التعلم. ولم يقل

---

(١) «طبقات الأطباء لابن أبى اصيبعة» جـ ٢ صفحة ٧٠.
(٢) "صبح الأعشى للقلقشندى" جـ ١ ص ٢٤٨.

نصيبها من التعليم الأولى عن نصيبها من التعليم العالى. ولكننا لا نستطيع أن ننكر أو نتناسى أن تعليم الأبناء كان أسهل من تعليم البنات، وأن تعليم البنات كان فيه شيء من الصعوبة وأن عدد المتعلمين من المسلمين أكثر من عدد المتعلمات من المسلمات. والسبب فى القلة هو ما كان يوضع من العقبات فى سبيل تعليم النساء تعليماً مدنياً وفى سبيل تعليمهن الخط.. والكتابة. وقد رأى بعض المتشددين ألا يعلم البنون والبنات فى مكتب واحد أو مدرسة واحدة خوفاً من أثر الاختلاط ومع هذا كان الذكور يتعلمون أخيراً مع الإناث فى كتاب واحد وخاصة فى البلاد الريفية والنائية حتى وقتنا هذا وكانت البنات يتعلمن فى بيوتهن فى البدء على أيدى بعض المؤدبين أو الأقارب.

والحق أن الإسلام قد اعترف بحق البنات فى التعلم إلى أقصى حدود العلم - إن كان للعلم نهاية - فتعلمت التعليم الابتدائى واستمرت فى التعلم وطلب العلم حتى وصلت إلى التعليم العالى فدرست المرأة المسلمة الأدب والدين والطب واشتغلت بالقضاء واشتركت فى الشئون السياسية، وكان من النساء. الأديبات والكاتبات والشاعرات والخطيبات والفقيهات والطبيبات والقاضيات والسياسات. وبلغت كثيرات منهن منزلة علمية رفيعة فكان منهن الأستاذات والمدرسات للإمام الشافعى وابن خلكان وأبى حيان وجميعهم من الفقهاء والعلماء والأدباء المشهورين ويكفيهن هذا فخراً بين النساء فى جميع الأديان. وهذا أكبر دليل على ما تمتاز به التربية الاسلامية من الحرية فى التعلم والديمقراطية فى التعليم واليقظة الروحية فى الإسلام.

موازنة المرأة المسلمة والمرأة الغربية فى القرون الوسطى:

إذا قلبنا صفحات التاريخ فى القرون الوسطى وجدنا أن المرأة الأوروبية المسيحية كانت غارقة فى بحار الجهل وأن الإغريق القدماء - ما عدا الإسبرطيين وأفلاطون - مع ما كان لهم من حضارة ومدنية - عدوا المرأة جزءاً من المتاع الذى يلهو به الرجل ويتمتع به وبخلوا عليها بحقها فى التعلم وفى المساواة بالرجل من الناحية الاجتماعية، وألفينا أن الألمان كانوا يقولون: إن خزانة الملابس هى مكتبة المرأة. وأن الفرنسيين كانوا يعتقدون أن المرأة يجب أن تكون بين أربعة جدران ورأينا أن المرأة المسلمة قد بلغت فى العصور الوسطى منزلة سامية من الناحية العلمية والنهضة العقلية والسمو الروحى واشتركت فى الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية للمجتمع الإسلامى فى عصوره الذهبية ووصلت إلى درجة كبيرة من الثقافة والعلم كانت تحسد عليها من هذا كله يتضح أنه لا صحة للرأى المنتشر بين المتعصبين من الغربيين بأن جهل المرأة المسلمة راجع إلى أسباب دينية وتقاليد إسلامية فالإسلام دين علم ونور لا دين جهل وظلمة وقد أوجب طلب العلم على كل مسلم ومسلمة. ولكن روح التعصب هو الذى نشر هذه الفكرة الخاطئة عن الإسلام. وأن من يقلب الصفحات

الماضية للمرأة المسلمة سيجد فيها صوراً للعظمة الروحية وللعناية بالقيم المعنوية التى يرمز إليها تعليم المرأة فى عصر النهضة الإسلامية. وللنساء المسلمات ماض مجيد تستطيع المرأة اليوم أن تفخر به وتبنى فوقه لنفسها مجداً علمياً وروحياً آخر.

والحق أننا لسنا فى حاجة إلى ذكر الفوائد التى تعود على الأمة الإسلامية من تعليم البنات فقد مضى الوقت الذى كان يعد فيه تعليم المرأة المسلمة عاراً وأننا ننتظر من كل أب مسلم أن يقوم بتعليم أبنائه وبناته من غير تفرقة لأننا إذا قمنا بتعليم الابن فالتعليم لا يتعدى فرداً واحداً ولكننا إذا علمنا البنت فكأننا قمنا بتعليم أسرة مسلمة وتثقيفها لأن بنت اليوم أم فى المستقبل تقوم بتربية أبنائها وبناتها. ولو ألقينا نظرة واحدة إلى التاريخ لوجدنا للأمهات فضلاً عظيماً فى تكوين العظماء من الأبناء.

وأعتقد أنه قد مضى الوقت الذى كانت فيه المرأة المسلمة منكودة الحظ مهضومة الحق مهملة فى التعليم. ولا ينكر أحد من المسلمين اليوم فضل تعليم البنت. وأنى أقصد بالتعليم التعليم الذى يؤدى إلى الفضيلة والرقى والكمال فى كل ناحية من نواحى الحياة. وليس هناك مضرة ولا منقصة ولا عار فى تعليم الفتاة المسلمة التعليم الذى يمكنها من كسب عيشها والاعتماد على نفسها إذا ابتليت أو أصيبت بفقر أو فقد زوج أو أب.

أمن العيب أن تجعل المرأة حية بالعلم قادرة على العمل؟ هل العار فى العمل والقدرة على كسب العيش من طريق شريف أو فى الاستجداء من الناس والالتجاء إلى وسائل غير شريفة؟ ماذا تستطيع المرأة المسلمة أن تفعل إذا تركت وحولها خمسة أطفال لا دخل لهم ولا معين؟ فيأيها المسلمون علموا بناتكم ولا تعطلوا نصف الأمة الإسلامية فمحال أن ترتقى مادام نصفها الذى يقوم بالتربية المنزلية متعطلاً جاهلاً لا يعرف عن الحياة شيئاً ساعدوها بالتربية الكاملة ورقوها بالعلم والتعليم واحترموها فما هى إلا مخلوق مثلكم. ولا تتركوها جاهلة مهملة. وفكروا فى تربية بناتكم كما تفكرون فى تربية أبنائكم.

إن المرأة ضعيفة القوة فقووها بالعلم وحسن الخلق ولا تقبروها بالجهل وهى حية. افتحوا سبيل التعليم أمامها فإن المرأة إذا تعلمت استطاعت أن تقوم بما يقوم به الرجل، استطاعت أن تكون معلمة وأستاذة وطبيبة للنساء والأطفال والعيون والأمراض الباطنية والأسنان والأنف والأذن والحنجرة وممرضة للمرضى ومربية وكاتبة ومؤلفة وباحثة وعالمة ومهندسة ومدافعة عن حقوق المرأة. واستيقظوا من سباتكم إن كنتم نائمين. ورحم الله حافظ إبراهيم إذ قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعباً طيب الأعراق

ورحم الله شوقى حيث قال:

وإذا النساء نشأن فى أميـة ... ضع الرجال جهالة وخمولاً

ليس اليتيم من انتهى أبواه من ... هم الحيـاة وخلفاه ذليـلاً

إن اليتيم هو الذى تلقـى له ... اما تخلـت أو أبا مشغـولاً

وليس الذكاء مقصوراً على الأبناء أو خاصاً بالبنات بل هو شركة بين النوعين ومن النقص أن نوجه العناية إلى نوع ويهمل الآخر. ومن الحكمة أن ننتفع بذكاء البنات فى دائرة حياتهن كما ننتفع بذكاء البنين حتى نجد شعباً مسلماً كاملاً جمع بين الجنسين ينهض ببلاده الإسلاميه ويعيد إليها تراثها الخالد فى عصورها الذهبية.

وقد أباحت الشريعة الإسلامية للمرأة أن تتجر ومنحتها الحق فى التجارة والحق فى التملك والبيع والشراء والتصرف فيما تملك من غير رجوع إلى زوجها. وجعل لها الحق فى أن ترث وهى زوجة. وترث وهى أم أو أخت. فالإسلام أعطى المرأة حقها فى التعليم. وحقها فى التملك وحقها فى الميراث. وهو دين العلم والديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

وظيفة المعلم فى التربية الإسلامية

من البدائة التى لا تحتاج إلى أن نبذل جهداً كبيراً للتدليل على صحتها، القول بأن المعلم يقف دائماً فى مقدمة العمل التربوى من حيث قيادته له، وبالتالى يقف - أو هكذا ينبغى - موقف الصدارة فى المجتمع الكبير حيث أن العمل التربوى - وهكذا ينبغى أيضاً - هو القاعدة الأساسية للسلوك الاجتماعى بمعناه الواسع الذى يجعله يشمل مختلف أنشطة الإنسان فى المجتمع. ومن هنا كانت عناية مفكرى التربية وفلاسفتها بمناقشة دور المعلم ووظائفه بالنسبة للعلم وللمجتمع، وما هى أحسن السبل لإعداده وتربيته.. إلى غير ذلك من الجوانب والقضايا، ومن هنا أيضاً كانت عناية التربية الإسلامية بإبراز مكانة المعلم، والمسئوليات التى ينبغى أن يضطلع بها حتى يمكن أن يقوم بدوره فى بناء الإنسان المسلم.

والآراء التى سنعرضها فى هذا المجال، لا نستطيع أن نزعم أنها تصور موقف التربية الإسلامية على وجه الإجمال، وإنما قصدنا بها أن نصور موقف أحد رجالاتها المعروفين، وإن كان هذا لا ينفى أن هذه الآراء تحمل قدراً كبيراً من العمومية والشمول.

أما الرجل فهو عصام الدين أبو الخير أحمد بن مصطفى بن خليل الشهير بطاش كبرى زاده. وتقول دائرة المعارف الإسلامية أن هذه التسمية تطلق على عائلة من العلماء الأتراك، وقد استمدت لقبها من إقامتها فى طاش كبرى، وهى قرية قريبة من قسطمونى فى الأناضول بتركيا. وقد ولد صاحبنا فى مدينة بروسة فى ١٤ من ربيع الأول سنة ٩٠١هـ / ٣ من ديسمبر سنة ١٤٩٥م. وقد تقلب فى عدة وظائف فى مجال التعليم فى عدد من المدن التركية، وقام فى أثناء عمله بالتدريس بتعليم أمهات الكتب فى الحديث والتفسير والنحو واللغة والمنطق والفقه والفرائض والبلاغة، ومات فى نهاية شهر رجب سنة ٩٦٨ هـ ١٦ ابريل سنة ١٥٦١م فى مدينة استانبول ودفن بها.

أما آراؤه فى هذه القضية، فقد أوردها فى كتاب بعنوان: «مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم»، والكتاب عبارة عن موسوعة فى تاريخ العلوم العربية، وقد رتبه المؤلف ترتيباً مصنفاً أى وفقاً لنظام التصنيف للمعرفة البشرية السائدة فى عصره، وقد تضمن معلومات ببليوجرافية تبين أهم المؤلفات فى كل علم من العلوم التى تعرض لها المؤلف - أى فى كل العلوم المعروفة فى عصره. والطبعة التى اعتمدنا عليها هى طبعة دار الكتب الحديثة بالقاهرة (١٩٦٨)، التى راجعها وحققها: كامل كامل بكرى وعبدالوهاب أبو النور.

وقد بين طاش كبرى زاده رأيه فى وظيفة المعلم فى عشر نقاط يمكن إجمالها فيما يأتى:

١ - من الضرورى ألا يختلط العمل التربوى الذى يقوم به المعلم بأى غرض خاص، فهو عمل يهدف إلى خير الجماعة البشرية، وخير الجماعة البشرية كما يكاد يجمع عليه مفكروا التربية الإسلامية يكمن فى ابتغاء مرضاة الله والامتثال لأوامره والاجتناب عن نواهيه، والعمل على نشر العلم، وتكثير عدد المتفقهين فى الدين حتى يقل الجهلة والأميون وتوعية الجماهير وإرشادهم إلى الحق وإقامة سنة رسول الله ﷺ، وتشييد قواعد الإسلام، وبيان الفروق والاختلافات بين ما حرمه الله وما حلله، على أن يقوم المعلم فى عمله بكل هذا مخلصاً، جاداً واثقاً ثقة حقيقية بما وعد الله للعلماء العاملين، راجياً ثوابه، خائفاً عقابه.

إن العلم يشبه المال من بعض الوجوه، فالإكثار منه يغنى عن السؤال، وكلما أنفق منه على نفسه وعلى غيره، كان سخياً متفضلاً «فلابد للعلم أيضاً من حال كسب واستفادة، وحال تحصيل وضبط، وحال استبصار وانتفاع، وهو التفكير فيما حصله إن كان اعتقادياً، أو العمل به إن كان عملياً، وحال نفع وتعليم، وهو أشرف أحواله».

٢ - مثل المتعلمين بالنسبة للمعلمين كمثل الأبناء بالنسبة للآباء، ومن هنا كان من المهم أن تكون معاملة المعلم للتلاميذ فى نفس المستوى الذى يعامل عنده أولاده، كما قال صلى الله عليه وسلم: (أنا أولى بكل مؤمن من نفسه). ولا يقف صاحبنا عند هذا الحد بل يزيد على ذلك بأن يدعو المعلمين إلى النظر إلى تلاميذهم على اعتبار أنهم أحب إليه من أولاده فيقول: «بل ينبغى أن يكون (الولد) الروحى أحب إليه من الولد الصبى». ذكر حافظ الدين البزازى عن المرغينانى عن عصام بن أبى يوسف: لم يكن لأحد على من الحق كما كان له، وكان مشفقاً على أصحابه، لو وقع الذباب على أحدهم، يرى مشقة ذلك عليه. وبلغ من شفقته عليهم أن رجلاً دخل عليه متغير اللون، وقال: إن فلاناً سقط من السطح، وكان الإمام يصلى، فسمع وصاح حتى سمع كل من فى المسجد، فلما فرغ ذهب إلى الرجل وقال: إن قدرت أن أحمد على نفسى هذه العلة فعلت، وخرج من عنده باكياً. وكان يأتيه صباحاً ومساء حتى برأ الرجل.

وإذا كان هذا حق المتعلمين على المعلمين، فإن للمعلمين حقاً على المتعلمين وهو أن يروا منهم من الاحترام والتقدير والطاعة أكثر مما يرى الآباء من أبنائهم، أما الدليل الذى يستند صاحبنا إليه فى هذا الشأن فهو أن المعلم بما يعطيه للمتعلم من العلم والهداية، إنما يهيئوه لأن يحظى برضى الله تعالى عنه، فهو إذن «سبب حياته الباقية». أما الأب فإن كل ما يؤديه لابنه فهو مما يتصل بالمحافظة على حياته الدنيوية من مأكل وملبس ومسكن وغير ذلك من حاجات إنسانية معاشية، فهو إذن "سبب حياته الفانية" وشتان بين الباقى والفانى!

٣ - ونظراً لارتباط معنى العلم بالمعنى الديني عند الجمهورة الكبرى من المربين الإسلاميين، وبالتالى النظر إلى طلب العلم على أنه واجب دينى، فقد اتفق عدد كبير منهم على القول بأن المعلم لا ينبغى له أن يتقاضى أجراً نظير قيامه بواجب التعليم، يقول طاش كبرى زاده: «إن طلب المال وأعراض الدنيا بالعلم، كمن نظف أسفل مداسه بوجهه ومحاسنه، فجعل المخدوم خادماً والخادم مخدوماً».

ويقول الشاعر العربى فى هذا المعنى:

من طلب العلم للمعاد	فاز بفضل من الرشاد
فيا لخسران طالبيه	لنيل فضل من العباد

وليس معنى هذا أن طلب المال من الأمور المستقبحة بصفة مطلقة، وإنما هو أمر يمكن أن يكون مستحسناً ومطلوباً إذا طلب للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتنفيذ الحق، وإعزاز الدين لا لنفس الطالب وهواه.

٤ - ويجب على المعلم ألا يدخر وسعاً فى بذل النصح للمتعلم وزجره عما يشين أخلاقه. ويتابع صاحبنا الاتجاه الشائع فى التربية الإسلامية وخاصة فى مدارسها الصوفية، فى القول بأن الغاية من تحصيل العلم «السعادة الأخروية».

٥ - ألا يتبع الأسلوب المباشر فى النهى عما ينبغى النهى عنه لميل النفس ناصحاً لهم مع الوقار، صابراً على تعليمهم فى أكثر النهار، ومحرضاً على كسب العلوم، ومشفقاً عليهم ومتحملاً منهم ما يصدر عنهم من الهفوات، وناظراً فى أحوالهم الدنيوية والأخروية، يبر حقوقهم بقدر وسعه وطاقته.

٦ - من الضرورى أن يراعى المعلم ميول المتعلمين وذلك بأن يبدأ بما يتفق معها وخاصة تلك الاهتمامات المتصلة بمعاشهم ومعادهم. ثم لا يقتصر ما يتفق مع الاهتمام فقط، بل يراعى كذلك ما يتفق واستعداداتهم يقول فى ذلك: «أن يبدأ فى التعليم ما يهم المتعلم فى الحال، أما فى معاشه أو فى معاده، ويعين له ما يليق بطبعه من العلوم، إذ كل ميسر لما خلق له». كما أن على المعلم أن يسير بمتعليمه خطوة خطوة على قدر استعداداهم اقتداء بالرسول ﷺ فقد كان ﷺ ينزل الناس منازلهم ويخاطبهم بما لا يستعصى على أفهامهم. وقال على بن أبى طالب وأومأ إلى صدره: "إن ها هنا لعلوماً جمة لو وجدت لها حملة". وقد جاء فى الأثر أيضاً: "كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله"، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ {الأنفال/٢٣}. ويرتبط بهذا الجانب ألا يعطى

من العلوم والمعارف إلا لمن يستحقونها، وليس الظلم فى منع المستحق، بأقل من الظلم فى إعطاء غير المستحق.

٧ - أن يحظى الصغار بالنسبة الأكبر من جهود المعلم «لأن ذلك كالنقش على الحجر، والتعليم فى الكبر كالرقم على الماء». ويظهر مرة أخرى ميل صاحبنا للرأى الصوفى القائل بأن هناك من المعارف والعلوم ما لا ينبغى إلقاؤه لعامة الناس، وخاصة المعارف الربانية والعلوم العقلية التى يتوصلون (الصوفية) إليها بمجاهدات ورياضات خاصة، وهو يستثنى من ذلك ما قد يجده لدى البعض من الطلاب من حسن الفهم والذكاء، فهؤلاء يمكن أن يفيض عليهم بشئ من هذه المعارف ولكن بعد أن يخضعهم لامتحانات وتجارب متعددة حتى يطمئن إلى أنهم أهل لذلك: «وأن وجد ذكياً ثابتاً على قواعد الشرع ومستعداً لدرك الحقائق العقلية والأسرار الإلهية، جاز أن يفتح له باب المعارف الربانية، بعد امتحانات متوالية وتجارب متتالية، حتى لا يتزلزل عن جادة الشرع، ويجمع بينه وبين الحقائق».

٨ - الحرص الشديد على توثيق الروابط بين ما يدعو إليه المعلم وبين ما يفعله فعلاً "إذ لو أكذب مقاله بحالة: ينفر الناس عنه وعن الاسترشاد به، لأن أكثر الناس مقلدون ينظرون إلى حال القائل، والمحقق الذى لا ينظر إلى القائل، بل يقصر النظر إلى ما قاله، فهو نادر، فليكن عنايته بتزكية أعماله. أكثر منه بتحسين علمه ونشره. وإذا زجر الطبيب عما يتناوله، يحمل على الهزء والسفه، أو يتهم على علمه وصدقه، أو يحمل على أنه يريد أن يستأثر به، فينقلب النهى إغراء وتحريضاً. كذلك العامى إذا رأى العالم غير العامل فهو بين أن يحمله على الكذب، أو أنه يعرف حيلة فعله.."، وفى هذا المقام نذكر قول الرسول العظم: "أشد الناس عذاباً ما لم ينفعه الله بعلمه، وقوله أيضاً: "أول ما تسعر به النار يوم القيامة رجل عالم فينزلق لسانه، فيدور فيها كما يدور الحمار مع الرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا هذا، أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه". وفى الآخرة نجد أشد الناس حسرة يوم القيامة رجلان. رجل علم علماً فيرى غيره يدخل الجنة بعلمه لعمله به، وهو يدخل به النار لتضييعه العمل به، ورجل جمع المال من غير وجهه وتركه لوارثه فعمل به الخير، فيرى غيره يدخل به الجنة وهو يدخل به النار. وكان الشيخ أبو إسحق الشيرازى يستعيذ بالله من هذا العلم حيث كان يقول: نعوذ بالله من علم يكون حجة علينا، وينشد:

علمت ما حل المولى وحرمه   فاعمل بعلمك إن العلم للعمل

وقال آخر:

يا أيها الرجل المعلم غيره   هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذى السقام من الضنا	كيما يصح بـه وأنت سقيم
مـازلت تلقح بالرشـاد عقـولنـا	صفة وأنت من الرشاد عديم
ابـدأ بنفسـك فانهها عـن غيهـا	فإذا انتهت عنـه فأنت حكيم
فهـناك تقبـل أن وعظـت ويقتدى	بالقـول منك وينفـع التعليم

وقد وبخ الله سبحانه وتعالى هؤلاء الذين يدعون الناس إلى مبادئ الخير والحق دون أن يكونوا أول العاملين بما يقولون فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ {البقرة/٤٤}، ولذلك قيل: وزر العالم في معاصيه أكثر من وزر الجاهل لأنه يقتدى به، كما قال عليه السلام: «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها». فعلى العاصى الجاهل فى كل معصية وزر العمل، وعلى العالم العاصى وزر العمل ووزر من يقتدى به، ولذلك قال على رضى الله عنه: قصم ظهرى رجلان: جاهل متنسك، وعالم متهتك، فالجاهل يغر الناس بنسكه والعالم ينفرهم بتهتكه.

٩ - للتدريس آداب يجب مراعاتها: من ذلك أن يكظم المعلم غيظه عند التعليم وخاصة فى المواقف التى قد تستثيره ولا يخلطه بهزل فيقسو قلبه، ويستعمل الحلم والوقار والتؤدة والرفق والمداراة فيما ينويه من الأمور. ولا يبالى إذا لم يقبل قوله قائلاً: إنما علىّ البلاغ والهداية والتوفيق من الله تعالى. ولا بأس من التأكد من مستوى فهم المتعلم ومدى حرصه على التعليم بالطريقة التى يراها، فإن النبى ﷺ كان يفعل مثل ذلك مع أصحابه.

وينبغى على المعلم أن يترفق بالطلاب المبتدئين بمعنى ألا يبدأهم بمشكلات العلم الذى سيدرسه لهم، بل يدربهم ويأخذهم بالأهون فالأهون، وعلى العكس من ذلك بالنسبة للذين قطعوا شوطاً طويلاً فى تعلم فرع ما فهؤلاء يجب الحذر من أن يقف المعلم فى تدريسه لهم عند حدود المبادئ الأولية والأمور الواضحة فذلك قد يجعلهم يستهينون بقيمة ما يتعلمون وبمن يعلمهم.

ويستقبح طائش كبرى زاده استقباحاً شديداً أن يكون المعلم ضحل المعرفة يكتفى بمجرد سطور قليلة يقرؤها كل يوم ثم يبادر إلى تعليمها للتلاميذ، وخوفه من حدوث هذا إنما من أن يدفع بعض العوام ممن لا يحملون من العلم إلا قليله إلى ممارسة مهنة التدريس، وهو لا يريد أن يعمل بها إلا الراسخون فى العلم.

فإذا ما كان بين الطلاب طلاب فقراء، كان من الضرورى التلطف معهم وتقريبهم حتى لا يكون فقرهم حائلاً بينهم وبين طلب العلم. ولما كان الطلاب يختلفون فى إدراكاتهم كان على

المعلم أن "يكلم كل صنف بما يبلغه عقله ويدركه فهمه"، أما إذا ما ألقى طالب سؤالاً وضح أن فيه قدراً غير قليل من الأغاليط، فلابد من عدم التعنت فى الإجابة والاستهزاء بالسائل. ويتصل بهذا أيضاً أن يزيد المعلم من جرعات العلم لهؤلاء الذين يشعر أنهم على قدر أعلى فى الفهم والإدراك.

١٠ - ولما كان القائمون بمهمة التدريس فى العالم الإسلامى فى أغلب الأحوال رجال دين وفقهاء، فقد كانت مهمتهم لا تقتصر على التعليم والتدريس، وإنما كانوا يقومون بالإضافة إلى ذلك بواجب الافتاء، ومن هنا فإن المتحدث عن المعلم فى التربية الإسلامية لابد من أن يتعرض كذلك لما كان يجب على المعلمين من حيث آداب الفتوى. فمن واجباتها عدم الاجتراء على تقلدها فتلك مسئولية خطيرة فأجرأ الناس على النار أجرؤهم على الفتيا، وأن المفتى جسر الناس إلى جهنم فيما يحل ويحرم من المال والدم والفرج. وكان عمر رضى الله عنه ربما يجمع أهل بدر كلهم فى واقعة ولا يحكم فيها برأيه. وإذا ما سئل المعلم فى مسألة تتطلب فتوى منه، وكان غير متيقن منها، فعليه أن يقول «لا أدرى» «فإن لا أدرى نصف العلم»، وقد سئل الإمام مالك عن أربعين مسألة، فقال فى ست وثلاثين لا أدرى مع أنه كان من الأئمة المجتهدين اتفاقاً. وتوقف أبى حنيفة فى ست مسائل، مشهور، وكذا يحكى الجواب بلا أدرى عن كثير من علماء السلف.

وإذا كلف بالفتيا فينبغى ألا يطلب بها سيادة ولا رياسة ولا إقبال الناس عليه ولا سبى قلوبهم لجلب النفع منهم وكسب الجاه منهم «بل كان نيته حسبة للثواب من الله عز وجل، وابتغاء لمرضاته وإعلاء لكلمته ونصرة لدينه وأداء للأمانة عندهم إلى من يعقبهم من إخوان الدين فإن ذلك فرض عليه».

وأما شرائط الفتوى فقد قيل: إذا كان صوابه أكثر من خطئه يحل له أن يفتى. يعنى برأيه.

١١ - وقد شدد الأمر فيه: لا يحل له أن يفتى حتى يعرف أحكام الكتاب والسنة والناسخ والمنسوخ وأقاويل الصحابة والمتشابه ووجوه الكلام. وعن أبى يوسف، وزفر، وعافية بن يزيد أنهم قالوا: لا يحل لأحد أن يفتى بقولنا ما لم يعلم من أين قلنا..؟ وإن كان حافظاً كتب أصحابنا لا بأس بالجواب على وجه الحكاية. وإن كان غير حافظ لا يسعه القياس إلا أن يعرف طرق المسائل ومذاهب القوم.

ومن آداب الفتيا كذلك ألا يصر على الخطأ ولا يستكبر عن قبول الحق وإن كان ممن هو دونه، وقد حدث أن أبى حنيفة قد تراجع عن بعض آرائه لما تبين قوة الحُجة التى استند إليها بعض تلاميذه فى رأيهم خصوصاً أبو يوسف. ومن الأمور المستقبحة أيضاً أن يشغل المعلم

نفسه بالخصومات والمعارك الشخصية، فهى تهدر كثيراً من الطاقات وتضيع وقتاً كان من الأفضل لو أنفق فى تحصيل العلم.

ثم إن مما يجب على المفتى: أن يراعى فى الرخص والتشديد حال السائل. يروى أن ابن عباس رضى الله عنهما سئل: هل للقاتل توبة؟ فقال: لا. وسأله آخر: فقال: له توبة. فسئل ابن عباس عن ذلك فقال: رأيت فى عينى الأول إرادة القتل فمنعته، وأما الثانى فقد جاء مستكفاً قد قتل فلم أقنطه. ويجب على المفتى أن يتجنب فى ألفاظ جوابه الألغاز فيوقع الناس فى جهل عظيم ويقع هو فى إثم كبير وربما أداه ذلك إلى إراقة الدماء لغرض مثل قول القائل: «أنا أحمد النبى» ويريد بأحمد، الفعل، ويجعل النبى منصوباً مفعولاً يعنى أحمد نبينا صلى الله على وسلم.

١٢ - ومن الوظائف الأخرى التى كان يتقلدها العلماء، وظيفة القضاء. ونظراً لجسامة المسئولية التى يتحملها العالم القائم بهذه الوظيفة، حذر طاش كبرى زادة من تقلد هذا المنصب راوياً عن النبى عليه السلام قوله: "من جعل قاضياً فكأنما ذبح نفسه بغير سكين". وإذا صح هذا فلا نظن إلا أن المقصود بذلك هو أن يتروى أولوا الأمر فى الاختيار لهذا المنصب الخطير وكذلك أن يتروى المختار فى القبول، ويراعى الحق والعدل فعلاً فى أحكامه.

ومما شاع بين الناس أن أبا حنيفة اختار الحبس والضرب ولم يتقلد القضاء. قيل: إنه دعى إلى القضاء ثلاث مرات فأبى حتى ضُرب فى كل مرة ثلاثين سوطاً، فلما كان فى المرة الثالثة قال: حتى أستشير أصحابى، فاستشار أبا يوسف فقال أبو يوسف: لو تقلدت لنفعت الناس، فنظر إليه أبو حنيفة نظرة المغضب، وقال: أرأيت لو أمرت أن أعبر البحر سباحة أكنت أقدر عليه وكأنى بك قاضياً. وروى عنه أنه لما تقلد نوح الجامع من أصحابه القضاء بمرور كتب إليه: يا نوح، ورد كتابك ووقفت على ما فيه. تقلدت أمانة عظيمة يعجز عنها الكبار من الناس وأنت كالغريق واطلب لنفسك مخرجاً. وعليك بالتقوى فإنه ملاك الأمر والخلاص فى المعاد والنجاة من كل بلية وبه يدرك حسن العواقب، قرن الله تعالى بخير العواقب أمورنا ووفقنا لمرضاته.

وعلى أى الأحوال فإن العالم إذا ما تقلد منصب القضاء كان ضرورياً كذلك أن يراعى آداب القضاء التى منها أن يقضى بين الناس بالحق والإنصاف ويعين المظلوم ولا يأخذ الرشوة ولا الهدية لا هو ولا من يتبعه من أعوانه، وإن أجاز البعض الهدية ممن جرت عادته قبل القضاء بمهاداته لأنه ليس للقضاء فى هذه الحالة بل جرى العادة. ولا ينبغى عليه أن يخاف من يتقلدون مناصب السلطة، بل يصرح بالحق ولو عليهم، ولا يتكلم بهواهم إلا بغير

الحق، ويراعى المساواة التامة بين صاحب السلطة والرعايا والأغنياء والفقراء «ولا يميل إلى أحد منهم ويتفحص عن نوابه وأعوانه كيلا يظلمون الناس ويقعد ظاهراً كى يصل إليه الغريب والفقير والخامل والعجاز بلا كلفة ومشقة. ويكون مستمعاً لكلام الوضيع والشريف مجيباً لهم باللين والإنصاف غير مائل فى الحكم إلى صنف دون صنف ولا بتواضع لأحد لغناه ولا لذى جاه لجاهه بل يكون تواضعه لأجل الله تعالى والأكرم عنده من هو الأكرم عند الله تعالى. ويكون محباً لأهل الخير ومحرضاً لهم على خيراتهم ومبغضاً لأرباب الشرور ناهياً لهم عن سوء فعالهم ويدلهم على الخيرات ويهديهم إلى سبيل الرشاد..».

ثم يختتم صاحبنا هذا الجزء بدعوة المعلمين إلى أن يدعوا الناس من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن الكبر إلى التواضع، ومن العداوة إلى النصيحة. وينبغى أن يزين حديث النبى ﷺ بأحسنه، أى يرده إلى أحسن التأويل ويحمله على أسد الوجوه، ولا يحدث عمن لا يقبل شهادته فإن من روى حديثاً يرتاب فى صحته فهو أحد الكاذبين. وعلى المعلم كذلك أن يجتنب اللحن والغلط والتصحيف والرطانة، وأن يخفض صوته، فإن أنكر الأصوات أرفعها إلا بقدر الضرورة. ويتكلم بفصيح الكلام دون مبهمه، ويجتنب التفهيق والتشدق والتعمق فيه ويرتل الكلام ترتيلاً ويسرده سرداً، فقد كان كلام نبينا ﷺيفهمه كل من سمعه، ويتجود فى كلامه تجوداً لا يتكلف النظم والسجع، فإن النبى عليه السلام نهى عن ذلك.

كما ينصح المعلم بقراءة بعض الكتب العربية مثل (إحياء العلوم) للغزالى، و(رياض الصالحين)، و(الأذكار) للنووى، و(سلاح المؤمن فى الأدعية) لابن الإمام و(شفاء الأسقام فى زيارة خير الأنام) للسبكى وكتب ابن الجوزى.

١٣ - وللمعلمين آداب فى المطعم والمأكل يجب مراعاتها: من هذه الآداب أن يجتنب الإسراف فى المطعم والملبس ولا يتجمل فى الأثاث والمسكن ويتشبه بالسلف الصالح، وهو وإن كان قد اعترف بأن التزين بالمباح ليس بحرام إلا أنه يخشى أن تؤدى المغالاة فيه إلى التعود عليه بحيث يصعب على العالم تركه. كما أنه يخشى من أن تؤدى استدامة الزينة التعلق بأسباب محظورة من مراعاة السلطان والناس ومراءاتهم ومداهنتهم وأمثال ذلك.

ويفصل طاش كبرى زادة القول فى بعض شئون الدنيا محاولاً أن يرسم الحدود التى يرى أن مراعاة المعلم لها، مراعاة للقواعد الأساسية للدين، فمن ذلك على سبيل المثال أن ينظر إلى المال على أنه وسيلة يمكن أن تسهم وتعين الإنسان فى حياته بحيث يتمكن من القيام بحدود دينه فيصدق هنا قول الرسول: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» أما هؤلاء الذين

يعكسون الوضع فيجلعونه هدفاً فى حد ذاته، فيصدق عليهم قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ {الأنفال/٢٨} وقوله تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ {المنافقون/٩} ومن ذلك أيضاً أن تكون نيته صالحة فى الأخذ والإنفاق. أما الأخذ فأن ينوى فيه أن يستعين به على العبادة ويأكل ليتقوى به على العبادة وكذا فى الترك زهداً واستحقاراً لا عجزاً واضطراراً، فقد بين الرسول ﷺ لابن سعد أن المؤمن ليؤجر فى كل شيء حتى اللقمة يضعها فى فم امرأته..

وهكذا نجد فى هذه الصورة التى رسمها طاش كبرى زاده نموذجاً للمعلم الذى عرفته التربية الإسلامية طوال فترة طويلة من التاريخ الإسلامى، المعلم العالم الفقيه الزاهد فى الدنيا، والذى يبتغى بعلمه الفوز بما وعد به الله عباده المخلصين فى العالم الآخر دون أن يجعله هذا الزهد منعزلاً عن الناس ومشكلاتهم.

العقيدة الدينية وأثرها فى تربية النشء

عندما تحدق بالبلاد ظروف عسيرة، وتنزل بها محن قاسية تؤلم الكبير والصغير إيلاماً شديداً إيلاماً من النوع المادى الذى يرهق الضعفاء، أو يزعج الجبناء، أو ينال من أفئدة المترددين والانهزاميين، بل هو إيلام معنوى ناشىء من خدش عزة الأمة المتأصلة فى الرفعة، والمتعودة على الشموخ، حين تجد أن تلك المحنة قد نزلت بها على يد ذنب قذر من أذناب دولة مستعمرة غادرة، لا تاريخ لها، ولا ماض يشرفها، ولا وراثة شهمة ترفع من قدرها.

عندما تلقى إحدى الأمم العريقة كأمتنا مثلاً نفسها في هذا الحالة، تشعر بألم قاس يحز فى قلبها، وتحس إحساساً باطناً فعالاً بأن عاملاً قوياً يدفعها إلى ضرورة التفكير الجدى، والتأمل العميق فى معانى الأحداث المحيطة بها، والأخطار التى تتعرض لها الأمة الإسلامية كلها. وسرعان ما تجد أن مقدمة الخطوة الأولى هى العمل السريع الحاسم الحازم على التخلص من هذه المحنة بطريقة عزيزة كريمة، تحتفظ للأمة جمعاء بهيبتها كاملة غير منقوصة، وأن مؤخرة هذه الخطوة هى النظر العاجل فى إعادة تكوين الشباب، وتقويم تربيته، وتقييم جميع حركاته وسكناته، وتعويده على الصدق فى القول والأخلاص فى العمل. وهذا لا يتيسر إلا إذا رُبى الشباب تربية دينية تعتمد قبل كل شىء على العقيدة والإيمان.

ونحن فى هذا لا نلقى الكلام على عواهنه، فقد أثبتت الوقائع المادية صحة هذه الدعوى مراراً، ونشرت فى تقارير رسمية. فحين روعت الهزيمتان المادية والمعنوية جيش الحلفاء فى إحدى مواقع الحرب العالمية الثانية، استدعى المسئولون أطباء نفسيين ليدرسوا حالات المنهزمين أو دعاة الانهزام، فلما فعلوا تبين لهم أن أولئك وهؤلاء جميعا ممن فقدوا العقيدة الدينية وصاروا لا يؤمنون بشىء البتة، وبالتالى فقدوا الإيمان بالغاية فانهارت معنوياتهم، وأصبحوا لا يجدون فى نفوسهم الهدف الذى يستحق التضحية بالحياة.

ومن ثم فإنه حين نزلت الآية الكريم﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ {التوبة/١١١} كان لها - كما أجمع الرواة - أثر بعيد الغور فى النفوس.

من هذا كله يتبين ذلك الأثر الرائع الذى تطبع به العقيدة نفوس المؤمنين، وتهون عليهم التضحية بالمال والحياة فى سبيل الشرف والكرامة والعزة.

وإذا أغضينا مؤقتاً عن مواقف الحرب والتضحية واسترجاع الهيبة وتضميد ذلك الخدش العارض الذى أصابها، ونظرنا إلى سير الحياة العامة وشؤونها العادية التى لا تستقيم إلا بالفضائل والأخلاق، ألفينا أن عشرين فى المائة يمتنعون عن الجرائم خوفاً من القانون، وأن

عشرة فى المائة منهم فقط يمتنعون بدافع الأخلاق الاجتماعية أو المدنية، وأن سبعين فى المائة يمتنعون لا عن الجرائم فحسب، بل عن صغائر الآثام والسيئات بدافع الدين.

فينبغى - إذن - أن يقدر المربون الذين تعنيهم استقامة الشباب، وصلاح المجتمع، أن ترفع المؤمنين الحقيقيين عن الغدر والخيانة والخداع، هو ترفع أصيل، صادر من القلب، ثابت مدى الحياة، بينما أن امتناع الخائفين من القانون هو امتناع الروغان، وأن الفرق بين الامتناعين كالفرق بين المرأة التى تصون عرضها من كل قلبها وعقلها، والأخرى التى تصونه خوفاً من بطش زوجها أو أسرتها من كشفها أمام المجتمع؟ وشتان ما بين حالة الثقة والطمأنينة، وحالة المراوغة الظاهرية.

على أنه قد يغلب على أوهام فريق من شبابنا المسطحين أن التمسك بالدين أو السير على نهجه القويم، وصراطه المستقيم ضرب من التأخر أو الجمود، وذلك خطأ شنيع فادح الكوارث والنكبات.

وربما كان هذا الشباب الساذج كان فى النصف الأول من القرن الماضى معذوراً فى انزلاقه فى هذه الهوة، إذ إن المستعمرين الذين كان لهم فى البلاد العربية سماسرة، وأعوان ذوو قوة وسلطان، كانوا قد أعدوا ميزانية خاصة وضعوها تحت أيدى أولئك السماسرة الخزنة، قصد إنفاقها فى إفساد تربية الشبان وعقولهم وعقائدهم. وقد نجحوا فى الوصول إلى هذه الغاية، فنقشوا فى أذهان المثقفين، إن أداء الفروض الدينية من: صوم وصلاة وزكاة وما إلى ذلك من التكاليف، من شأنه أن يجلب إلى أصحابه الإهانة والاستهزاء.

ولقد خلقت هذه المحاولات الاستعمارية الخطرة فى نفوس الكثيرين من المسلمين عقدة نفسية، كان من نتائجها أن دفعتهم إلى التهاون فى إقامة الشعائر الدينية، التى هى مناط التماسك والترابط. وتلك هى الغاية الجهنمية التى رمى إليها المستعمرون، لأنهم يعلمون تمام العلم أنه متى عم الاستهتار بالعقيدة، ساد الانحلال، ومتى ساد الانحلال انهار الكيان من أساسه، ومتى انهار الكيان تثبتت أقدام الاستعمار. وسر ذلك أن المستعمرين قد حنقوا على أهل هذه التعاليم القوية المتينة، فودوا أن يعملوا على ضعضعة قواهم، ومحو هيبتهم ومقاومتهم، وقد استعملوا لهذه الغاية سلاح ازلاق الشباب فى هذا الاستهتار بالشعائر الدينية، وإبعاده عن فهم مغزى الأوامر السماوية، وأغلقوا دون عقوله أبواب الحضارة الإسلامية الأصيلة، وفتحوا أمامه لمعان المدنية الغربية المادية.

ولكن لو أن المسلمين المسئولين عن تربية الشباب وقيادته نحو الحياة الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية السليمة، قد فهموا دينهم حق الفهم ولقنوا الشباب مبادئه وتعاليمه على أصولها، وراقبوا تطبيقها مراقبة دقيقة، لو أنهم فعلوا ذلك لاحتقر الشباب

سخرية الساخرين منهم، ولتباهوا بقوة الإيمان، وثبات العقيدة، والمحافظة على تأدية الواجبات الدينية والدنيوية، ولنظروا إلى المثل العليا المرسومة فى دينهم، وتطلعوا إلى السمو الممثل فى مبادئهم وشعائرهم، ولأيقنوا أن هذه المبادئ، وتلك الشعائر من شأنها أن تقودهم إلى الحرية والسعادة، بل إلى الرفعة والسيادة، لا عن طريق الاستبداد والطغيان، والاستعلاء والتحكم فى شؤون الغير، بل بوساطة **المبادئ العالية المسعدة وذلك لأنه إذا انتصرت فى** قلوب المؤمنين روح الخير التى تمثل الألوهية على الأرض، تعهدت العلائق بين الإنسان وربه بالتقوية والتنمية، ومتى تقوت هذه العلائق، جعلت النفس المؤمنة، تتلقى أوامر السماء بهيئة نقية صافية، ثم تمليها أولاً على حياتها العملية الخاصة، لكى يطبق العلم على العمل، فتتحقق الحكمة﴿ **يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾ {البقرة/٢٦٩}.

وإذا تم له ذلك، أفاض تلك الأوامر الإلهية على بيئته ومجتمعه، وقد تتسع الدعوة حتى تعم الإنسانية جمعاء، فتصلح حالة الدنيا، ويسودها الوئام والسلام، وتعمها العدالة والنصفة، ويحل الرضى محل النزاع، وتشغل المحبة من النفوس موضع البغض والحفيظة. ومن آيات ذلك أن الأوامر الإلهية، كانت منذ غابر العصور، وستظل، تقتاد بنى الإنسان إلى الفلاح والكمال، إذا وضعوها موضع الاحترام والعناية والتطبيق، ولكنها - ولا قدر الله - تشهد دمارهم وفناءهم، إذا هم سحبوا عليها أذيال الإهمال والنسيان.

فإذا كانت كل الظروف والأحوال شاهدة بأننا كنا فى أشد الحاجة إلى إرشاد الأوامر السماوية، وقيادة الكتاب الكريم، والسُنة الغراء، لجميع أقوالنا وأفعالنا وخطواتنا وتصرفاتنا، وأن ذلك كله كان قبل أن نختلط بالأجانب، ونتعرض لما هب علينا من ربوعهم من عواصف الفتن والغوايات، فكيف بنا بعد أن انهمرت علينا من أصقاعهم سيول المادية، والميوعة والتحلل، والزندقة، والإلحاد؟

نعم إن الذين ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية عائمة. تفتنهم روعة المدنية الغربية البراقة، التى يؤلف إنتاجها العلمي والأدبى والفنى والثقافى ألواناً لماعة، لشبح مدنية زائفة، تعلن أنها راقية مصقولة. وتزعم أنها بعيدة عن كل عنف وقسوة. ولكن النظرة الفاحصة تكشف للمتعمقين حقيقة هذه المدنية. وتبين فى وضوح أن الأزمات الخلقية الراهنة النابعة من الغرب، تنم عن غلظة وفظاظة، لا نظير لهما إلا بين الوحوش الضارية، وأن الحربين العالميتين الأخيرتين، قد كشفتا لنا عن حقيقة هذه المخلوقات التى يعتبرها القشوريون عندنا ينابيع المدنية، وأن الحالة الراهنة تظهر لنا أن كل ما بينهم، هو عبارة عن كفاح وحشى حاد دائم، مخبوء تحت ستار الحقد والغل والجشع المغطى بالنفاق الكثيف حيناً، والخفيف أحياناً،

وأنهم غارقون فى معارك طاحنة لا نظير لها فى عهود البشرية الأولى التى يطلق عليها أولئك المستجحون الماجنون أسمى العصر الحجرى، والعصر الحديدى.

وذلك لأنهم استخدموا فى ضرواتهم البغيضة مقدرتهم العقلية، ووسائلهم التكنولوجيبة، ومخترعاتهم الميكانيكية، التى تزلزل تنوعاتها وتجديداتها المتوالية، جميع النظريات العلمية السابقة بمباغتاتها المفاجئة، فتقضى على مظاهر الاعتدال والاتزان، ولا تلبث أن تحقق رجحان إحدى الكفتين حيناً من الزمن، سرعان ما يزول. ويتخلى للكفة الأخرى عن ذلك الامتياز. وهكذا دواليك صعوداً وهبوطاً تتابعهما الأبصار والعقول والقلوب بلا ثبات ولا استقرار.

وتلك بالإجمال هى حرب الفروض والتكهنات والرهبة والفزع والتسابق على الأسلحة المدمرة والجاسوسية والتنافس فى مضاعفة الميزانيات لتقوية مصانع التخريب والتقويض. ومن المجون أيضاً أنهم يسمونها حروب المذاهب والمبادئ، وكان الأولى بهم أن يطلقوا عليها اسم «حروب القهر على التمذهب» أو الإجبار على اعتناق المبادئ، ولو لم تسترح لها العقول ولا القلوب.

غير أن هناك من بنى الإنسان أفراداً وجماعات، يعرفون واجباتهم، ويدركون أن الضرورة تحتم عليهم مجاراة أولئك الذين ليس لهم من الإنسانية إلا اسمها. ولكن إخلاصهم لبلادهم، وأملهم فى إنقاذ مبادئهم من مخالب هذه الوحوش الضارية، يتطلبان منهم أن يسايروهم فى الاستعداد استجابة لأمر كتابهم: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ {الأنفال/٦٠} لا سيما أنهم يعلمون تمام العلم زجاجية ذلك السلام الظاهرى الزائف، الذى ينادى به أولئك المنافقون، ويوقنون بامتلاء قلوبهم بالحفائظ والتحفزات، للهجوم فى كل لحظة من لحظات النهار والليل.

ولا ريب أن هؤلاء الأناس الجديرين باسم الإنسانية يعلمون أنهم حين يجد الجد تتحدد مسئوليتهم وتبدو هائلة. ومن ثم يستعدون لتلك الساعة. ويعدون مشروعاتهم التى ستتلاقى مع أمثالها، والتى هم يتنبأون بها. ويحسبون حسابها، كأنهم يتغلغلون فى أعماقها منذ الآن، لكى يستطيعوا - بفضل اتقان دراستها - أن يردوا على كوامن مشروعات أعدائهم وإلا تأخذهم ابتكارات أولئك الأعداء على غرة.

لذلك كله نحن ندعو الأمة العربية خاصة والأمم الإسلامية عامة أن تتكتل لمواجهة هذه الأخطار الوحشية، وأن تعتصم بحبل الله القوى المتين. وأن تنقب فى دينها عن تلك المبادئ العالية، التى هى وحدها القديرة على تعميم السلام، وإنقاذ البشرية من هذه الوهدة، التى هى

سائرة على حافتها. والتى لو لم تغشها تلك المبادئ السماوية، لتردت فيها، وقضى عليها القضاء الأخير. ونهيب بالمسلمين ألا يقفوا سلبيين أمام هذه السيول العارمة، والعواصف العاتية، والأحداث المجتاحة، فليس أبغض إلى الإسلام، ولا أبعد عن تعاليمه من السلبية والجمود.

كما ندعوهم إلى أن يصونوا أبناءها وبناتهم عن التحلل والميوعة بأحكام تربيتهم على النماذج الإسلامية، إذ إن التربية هى الوسيلة المثلى التى يؤسس بها كل مجتمع فى قلوب أبنائه الدعائم الجوهرية لوجوده الخاص، وهى الأثر الخالد الذى تتركه الأجيال الناضجة فى نفوس الأجيال التى لم تنضج بعد، ولم تهيأ لحسن مزاولة الحياة الاجتماعية. وهدفها الرئيسى هو أن تنشئ وتنمى فى تلك الأجيال الشابة مزيجاً من الشعور بالحاجة إلى العوامل الدينية والأخلاقية والعقلية، إلى جانب القوة البدنية التى هى ضرورية لقوام المجتمع بوجه عام، وللأوساط التى تحيا فيها بنوع خاص.

ومنشأ ضرورة التربية والحاجة الماسة إليها هو أن الطفل لا يحمل معه إلى الحياة إلا طبيعته الفردية بالأنانية الغريزية، ولكنه يحمل أيضاً الاستعداد لتعلية تلك الأنانية وترقيتها. ومعنى هذا أن المجتمع - بإزاء كل جيل جديد - يكون أمام صحيفة بيضاء ينبغى أن يبذل جهوده لينقش عليها ما يجعلها صالحة للحياة والسعادة المسعدة للغير أى أن المهيمنين على أموره يجب عليهم - عن طريق أصلح المناهج - أن يمزجوا بذلك الكائن الأنانى كائناً آخر عادلاً معتدلاً، قادراً على قيادة حياة خلقية واجتماعية، لا تستطيع الوراثة أن تحققها له.

ولما كانت هذه الجهود فى أشد الحاجة إلى مدنية دائمة السير إلى الأمام، لتكلل مساعيها بالنجاح، وتضمن لباذليها الفوز بنتائج جهودهم.

ولما كان كل متأمل فى المدنية الغربية المادية، يتضح له تمام الاتضاح أنها سائرة إلى التدهور والاندحار بخطوات واسعة نرجو ألا تهوى بسببها الإنسانية كلها إلى الحضيض.

ولما كانت الحضارة الإسلامية هى وحدها المستقيمة المعتدلة المتزنة السائرة إلى التقدم والرفعة، ولم تكب عبر التاريخ فى أية نكسة إلا بسبب تقصير أبنائها أو انحرافهم عن مبادئ دينهم القويم.

لما كان كل ذلك من الحقائق الواقعية الناصعة، فإن أقل ما يحقق الإنسانية من مسكة العقل، يحتم على المهيمنين على شؤون الأطفال والمراهقين ألا ينشئوهم إلا على مبادئ التربية الإسلامية ليضمنوا لهم الاستقامة والقوة والشهامة والعدالة والسهر على إسعاد

المجتمع الذى يعيشون فيه، بل على إسعاد الإنسانية جمعاء «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» و «أحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً».

وأكثر من ذلك أن مبادئ الإسلام لا تقف عند تسوية الغير بالنفس إلا بازاء المسلم العادى، أما المسلم الذى يتطلع إلى مزيد من السمو، ويمد عينى قلبه إلى وفرة من رضاء ربه، وإلى رفعة منزلته الخلقية، ولا يكتفى بمستوى الأخيار، بل يرنو إلى مكانة الأبرار، فهو يفضل الغير على نفسه، ويقف فى الدرجة الثانية أو الثالثة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾{الحشر/٩}.

كيف نحمى شبابنا من

خلال ألتربية ا لإسلامية

لا نحسب مجتمعاً إنسانياً فى أمة من الأمم، وفى أى زمن من الأزمان، لم يشهد هذه الظاهرة التى تثير حواراً دائماً متصلاً بين جيل الآباء وجيل الأبناء، بين جيل قام على الحياة فى مجتمعه يسوسها، ويدبر أمرها، وجيل يتهيأ لميراث القوامة على هذا المجتمع والإمساك بدفة سفينته يدفع بها فى عباب المستبقل.

وأول ما ينبغى الالتفات إليه فى هذا المقام، هو النظر إلى هذا الحوار على أنه أمر طبيعى لابد منه عند التقاء الأجيال، وهو علامة صحة وحياة فى المجتمع، أكثر منه أعراض مرض، وإفراز آفة، كما يحلو لبعض الناس أن يسميه.

وإذن فلا يقع هذا الحوار الذى تشهده الحياة بين جيل الشيوخ وجيل الشباب موقع إنكار، أو استغراب بل المنكر والمستغرب حقاً هو ألا يقوم هذا الحوار، وألا يتصل بين الأجيال المتعاقبة على الحياة.. وأنه إذا كان لنا أن نسمى هذا الحوار مرضاً، فهو مرض إنسانى، ملازم للطبيعة البشرية، لا تتخلص منه أبداً.. أشبه بتلك التغيرات الجسدية والنفسية التى تظهر على كل فتى أو فتاة عند المراهقة، حيث يلتقى الصبا مع الشباب فى الكيان الجسدى، كما يلتقى الشباب مع الشيوخ فى كيان الجسد الاجتماعى.

فهذا الحوار الذى يقوم بين الأجيال عند ملتقى كل جيلين، هو تعبير طبيعى عن حقيقة كامنة فى كيان المجتمع، ينبغى أن نتقبله، وأن نوسع صدورنا له، سواء جرى هذا الحوار سهلاً سمحاً، أم وقع ثائراً عاصفاً.. فإن الطبيعة لم تستقم معنا على وجه واحد، فيما نتقلب فيه من شئونها، فهى خصب وجدب، ونسيم وسموم، وزمهرير وحرور، ونور وظلام.. وهكذا.. وأنه لا يصلح أمرنا مع الطبيعة. إذا نحن أعلنا الحرب عليها، وحاولنا أن نغير مجراها، ونخرج بها عن سنن الكون التى أودعها الخالق جل وعلا فى أرضها وسمائها، فى ذراتها ومجراتها.. فذلك أمر أن حاولناه وتصدينا له لم نحصل منه على طائل، وضاع فيه جهدنا هباء، لأن سنن الطبيعة لا تقاوم ممن هم محكومون بسننها، و هم نحن البشر الذين هم بعض هذه الطبيعة.. والأسلوب الحكيم الذى تلقى به الكائنات نواميس الطبيعة، هو مصالحتها، ومصانعتها، وتحويل دفة السفينة إلى اتجاه تيارها. وأفراد قلوعها على مهب رياحها، وإلا تحطمت السفينة عند أول صخرة يلقى بها التيار إليها..

هكذا نجد كائنات الحياة جميعها، من أدنى درجاتها إلى أعلاها. تكيف وجودها مع الطبيعة، وتلبس لكل حال من أحوالها الثوب الملائم لتلك الحال، وبهذا تتناغم مع لحن الطبيعة، وتنسجم مع أنغام الوجود، ولم نجد كائناً من الكائنات حاول أن يخرج على سنن الطبيعة، ويتحدى أحكامها، ثم سلم من العطب، أو نجا من الهلاك.. وهكذا انقرضت كثير من

الكائنات، من أنواع النبات والحيوان، لأنها لم يكن لها من ذاتيتها هذا الاستعداد الذى تتلاءم فيه مع ظروف الطبيعة، وأحوال البيئة..

فإذا سلمنا بهذا الحوار، أو هذا الصراع الذى يقوم بين أجيال الناس - ولابد أن نسلم به طوعاً أو كرهاً لأنه طبيعة وجود وسُنة حياة - إذا سلمنا بهذا الحوار، خف على أنفسنا ما نشهده من خروج الشباب على أسلوب الحياة التي يحياها المجتمع، ذلك الأسلوب الذى تحكمه أفكار وتصورات، وتضبط ناموسه عادات وتقاليد وأوضاع، هى من صنع جيل أو أجيال لم يشارك الجيل الجديد الناشئ فى صنعها، ولم يعطها من وجوده ما أعطت الأجيال السابقة من أفكارها، وخواطرها.

وأنه لمن قبيل التحكم الظالم أن يحرم الشباب حقه من المشاركة فى صنع الحياة التى يحياها، وأن يعد نفسه للدور الذى سيقوم به على ميراث عريض، هو تركة الأجيال السابقة كلها.. وأنه لمن التصور الخاطئ أن يفهم الجيل المتقدم أن الحياة له وحده، وأن له أن يفرض على المجتمع آراءه وأفكاره وأسلوب حياته، غير عامل حساباً للجيل الناشىء الذى يشاركه هذه الحياة، بل والذى يتهيأ لأن يستقبل إلى حد ما بتوجيه مسيرتها فى مرحلة من مراحل رحلة الحياة!

فالحياة قسمة مشتركة بين الجيل القائم والجيل الناشىء.. وأنه لمن خير الجيلين معاً أن يلتقيا على تفاهم وتصالح.. وذلك لا يكون إلا إذا عرف كل من الجيلين موضعه من الآخر، وإلا إذا اعترف كل من الجيلين بحق صاحبه، وأفسح له المكان الذى يحقق به وجوده، ويحفظ عليه ذاتيته.. إنهما للمجتمع أشبه بالجناحين للطائر، وباليدين للإنسان..

على أن الحياة لا تجرى فى كل حين على هذا الأسلوب من التفاهم والتصالح بين الجيلين المتقابلين - الجيل السابق، والجيل اللاحق - بل كثيراً ما يخرج الأمر بينهما إلى أن يكون نزاعاً وخلافاً، يبلغ فى بعض الأحيان إلى إعلان الحرب بينهما، يرمى كل من الطرفين صاحبه بألوان شتى من التهم.. فالجيل السابق فى نظر الجيل الناشئ، هو بقايا حياة، ومخلفات معركة الحياة، قد امتصت الحياة حياته، وصدع الزمن مغارسه، فلم يعد صالحاً لأن يخرج زهراً، أو ينضج ثمراً.. والجيل الناشىء فى حساب الجيل السابق، هو أشبه بنبتة البقلة الحمقاء، تنبت فى مجرى السبل، فتمتلئ عروقها ماء تستغنى به عن أن تضرب بجذورها فى الأرض حتى تستنبط الماء من بطن الثرى، فإذا انقطع المطر، وجف مجرى السيل ماتت وشيكاً!!

وليس بمنكور أن يخرج الشباب عن جادة الطريق التى يسير عليها الآباء، وليس بمنكور كذلك أن ينكر الآباء على أبنائهم هذا المسلك الذى سلكوه.. فهذا الذى يأتيه الأبناء هو حق

لهم، وهذا الذي يكون من الآباء هو حق لهم، وواجب عليهم فى وقت معاً.. فللأبناء أن يجربوا الحياة بأسلوبهم الخاص الذى يوائم طبيعة الشباب، ويستجيب لنداء هذا الدور من حياته، وللآباء أن يقفوا على الشاطئ يرقبون أبناءهم، وهم يسبحون فى بحر الحياة، ويضربون بأيديهم على أمواجها، ليتعلموا العوم.. فإذا بعد بعض الأبناء عن الشاطئ، أو جرفه التيار إلى منطقة الغرق، كان على الآباء أن يفعلوا فعل رجل الإنقاذ فى مواجهة من يشرف علي الغرق، همه كله فى إنقاذه، وانتشاله من يد الموت الممتدة إليه..

إن الشباب هو غرس الجيل الذى سبقه إلى الحياة، والذى تعهده رضيعاً، أو صبياً، وغلاماً، وفتى، وشاباً.. والذى علق عليه آماله، وانتظر منه ما ينتظر الزارع من زرعه، من ثمر طيب، ومحصول وفير. وأن هذا الذى يوجه إلى الشباب من نوم، وما يقع على آذانهم من نقد، وما يلقاهم به الآباء، والمربون والمصلحون من تجهم أحياناً، ومن إنكار وسخط أحياناً أخرى، هذا كله وكثير غيره هو من قبيل الحرص على الشباب، والحراسة لعقولهم القاصرة أن يغتالها الغرور، ولقلوبهم الغضة أن تصبح مرعى لآفات الغواية والضلال، التى تباكرهم قبل أن تشتد أعوادهم، وتعمق جذورهم، وتتفتح زهرات ملكاتهم، وتستحصد ثمرات عقولهم..

فالشباب يمثل أخطر مرحلة فى حياة الإنسان، حيث يتعرض - لأول مرة - لممارسة الحياة، والاستقلال بالسباحة فى بحرها المتلاطم أشبه بالطائر يخرج من عشه لأول مرة يحاول أن يحلق فى الجو بجناحيه الواهنين.. إنه لا يقدم على تلك التجربة إلا وبين يديه ومن خلفه أبواه. فإن حدثته نفسه بأن يخرج فى غفلة منهما انقض عليه طائر فاختطفه، أو خانه جناحاه، فهوى إلى الأرض صريعاً..!

ولقد تولت الشرائع السماوية والوضعية رسم الدستور الذى يربى عليه الشباب، وتزويده بالزاد الذى يقطع به رحلة الحياة مسلحاً بكل سلاح، تعينه على ظروفه وأحواله، وتسعفه به طبيعة مجتمعه، حتى يستطيع أن يمضى فى طريقه، وأن يدفع السلاح الذى فى يده ما يلقاه على طريق الحياة من أكثر من عدو يهاجمه فى كل موقع من مواقع الحياة منه.. فى عقله وفى روحه، وفى وجدانه..

والخطر الذى يتربص بالشباب على طريق الحياة، إنما يكون أكثر مهابة من جهة أصحاب الفلسفات المريضة، والمذاهب المنحرفة، والآراء الضالة، ممن يخيل للشباب منهم أنهم طلائع الفكر فى العصر، وقمة الحياة العقلية فى مجال العلم، والفن..

فهؤلاء المنحرفون إنما تروج آراؤهم، وتشيع مذاهبهم فى عالم الشباب الذى يستهويه هذا الغى، ويستغويه هذا الضلال، حيث يجد الشباب عند أول طرقه لأبواب الحياة، طريقاً مفتوحاً، إلى دنيا المنحرفين، تقوم على جانبيه ومن بين يديه ومن خلفه نافخات الأبواق من

مهاب الفتنة، ومسارح الغواية والضلال، فيتهافت الشباب على شباك هذه الموائد المنصوبة لصيده، ويترامى عليها كما يترامى الفراش على النار، يحسبها ألواناً من الزهر، فى خميلة من خمائل الربيع!

وهناك جهة أخرى تغرى الشباب بهذه الضلالات، وتدفعه دفعاً إلى تلك الشباك المنصوبة له ليس مصدرها هؤلاء الضالون المنحرفون من رجال الفكر والأدب، والفن، وإنما مصدرها الشباب نفسه، أو بمعنى أدق بعض الشباب، ممن يقعون فريسة سهلة لتلك الدعوات الضالة، التى ينزلقون إليها، ويغرقون فى لججها.. فهؤلاء الشبان الذين أغواهم هذا الغى، يمثلون طليعة الهزيمة لجيش منهزم فى معركة الحياة، وهم بهذا يفتحون طريقاً للجبناء، وضعاف الإيمان، وسرعان ما يكثر المتدافعون على طريق الهزيمة، ثم لا يلبث الجيش كله أن يركب هذا الطريق، مجللاً بالخزى والعار.. فإنه ليس أكثر إغراء للشباب بركوب الضلالات، والتزين بكل بدعة ضالة، من الشباب نفسه، ومن التعرض من بعض أفراد منهم لحمل جرثومة هذا المرض الخبيث، حيث لا تلبث العدوى أن تنتقل إلى جماعة الشباب كلها، كما تنتقل النار إلى أعواد الهشيم.

والعقيدة الدينية، وما يدور فى فلكها من عبادات، ومعاملات، ووصايا، وأخلاقيات، ومُثل، وإنسانيات، هي الركيزة القوية التى يقوم عليها بناء الكيان الإنساني كله، مادة ومعنى، جسداً وروحاً.. وهى (المصل) أو (اللقاح) الذى إذا باكر حياة الشباب، ومازج عقله، وسكن إلى قلبه كان له منه حصانة تؤمنه من أن يكون ضحية من ضحايا تلك الدعوات التى تغرر بالشباب، وتلقى بهم فى عالم التيه والضياع.

لهذا كان الدين، وكانت العقيدة فى وجه عداوة حقود عند أصحاب البدع والضلالات، لأن العقيدة الدينية هى التى تتحطم على صخرتها العتيدة الصلدة كل دعوة ضالة، ويستخزى أمام جلالها وبهائها كل مذهب غوى أثم..

ومن هنا كانت دعوات الكفر، والإلحاد، هي السلاح الذى يرمى به الغواة والمضللون فى وجه أصحاب الأديان والمعتقدات التى تؤمن بالله، وبرسل الله، وباليوم الآخر، وبالحساب والجزاء، والجنة والنار.. وفى تقديرهم أنهم إذا استطاعوا أن يكسروا هذا السد المنيع، لم يكن للمحتمين خلف هذا السد من عاصم يعصمهم من الغرق، فى أمواج الأهواء، والفتن، والضلالات، التى لا ممسك لها، بعد انهيار حائط الإيمان..

والشباب - لاشك - هو أول ضحايا هذه الكارثة التى تنجم عن سقوط قلعة الدين، وأول مغنم يقع ليد هذا الغزو البربرى الذى يحارب بسلاح المادية الملحدة خصماً أعزل مجرداً من

سلاح العقيدة، الذى ليس ثمة من سلاح غيره يفل كل ما تلقى به المادية فى ميدان القتال من عدة وعتاد!

فالله، والبعث، والجنة، والنار.. كلها عند الماديين أضغاث أحلام، وتصورات وهم خداع، ورؤى جياع ومحرومين، مثلها الضعف الإنسانى، وجسدها الواقع الأليم المرير للحياة، وما يجد فيها الناس من آلام وشقاء، وما يرميهم به القدر الأعمى بيده العسراء التى لا ترحم.. فكان الفرار من هذا الواقع الكريه والهرب من وجه هذه الحياة الكالحة الكئيبة دعوة مستجابة عند الناس، انتهزها رجال أذكياء خبثاء فرصة مواتية، فأقاموا للناس هذا العالم الغيبى، من وراء العالم الذى يعيشون فيه، ونصبوا لهم موائد فاخرة زاخرة، أجلبوا إليها كل ما يبلغه الخيال من ألوان النعيم، الذى تراقص صوره وأشباحه فى مخيلة المكدودين والمحرومين، الذين أغراهم هذا السراب الخادع، فتدافعوا إليه، وتواردوا على موارده!

هكذا يتحدث الماديون عن الدين، وعن الحياة الآخرة، وما وعد المؤمنون فيها من جنات تجرى من تحتها الأنهار.. فما الديانات، والمعتقدات الدينية التى تشد الناس إلى الحياة الآخرة، وتصل وجودهم الدنيوى الفانى بوجود آخر، خالد لا يفنى.. ما هى إلا أوهام وأضغاث أحلام، فتحت للناس أبواباً واسعة يهرب منه الجبناء، وضعاف الأحلام من مواجهة الواقع، كما يهرب شارب الخمر بإغراق نفسه وإغراق همومه معها فى كأس الخمر.. فإذا صحا من خماره طلعت عليه همومه فى صورة أشد نكراً، وأمرّ طعماً، فلا يجد مهرباً منها إلا أن يقيم على كأس لا تفرغ أبداً، وإلا على سكر لا صحو معه..

وهكذا وجدت المادية فى دعوة كدعوة المزدكية، والخرمية قديماً، وكدعوة (الوجودية) - وجدت - ديناً أسمته دين الحياة، أو دين الواقع، أو دين الوجود.. إلى ما شاعت من أسماء أطلقتها على هذا المولود المشئوم، لتجعل منه نبياً يبشر بهذا المذهب البهيمى، الذى يحل الإنسان من كل التزام إنساني، أو اجتماعى، أو خلقى، ويرسله هكذا هملاً يرعى مع الدواب، ويساكن الهوام والحشرات، لا يرفع بصراً إلى السماء أبداً..

وكما أن لكل دين فلسفة، ولكل فلسفة منطقاً، كذلك كان للوجودية فلسفتها ومنطقها، كى ينخدع الشباب بهذه الفلسفة وذلك المنطق، وكى يحسب نفسه فى عداد الفلاسفة والحكماء!

وأول ما تنادى به الوجودية، وتقيم عليه فلسفتها المريضة هو (القوة).. فمن كان يجد فى نفسه الشجاعة، ويرى فى وجهه القوة - كان جديراً بأن يدخل عالم الوجودية، ويجد له مكاناً رحيباً فيه، ومن افتقد القوة والشجاعة فلن يجد سبيلاً إلى هذه الجنة الأرضية التى يحلم بها المؤمنون فى ملكوت الله..!

وإذن فليكن الإنسان شجاعاً، وليخلع أردية الزيف والضلال من ديانات ومعتقدات، وتقاليد، ليخلع كل هذه الأغطية التى نسجها له الأمل الكاذب، المتولد عن الألم، والحرمان، والشقاء، والخوف الذى ترمى به الحياة أبناء الحياة.. ليخلع الوجودى كل هذه الأغطية، وليخرج إلى الحياة عارياً كما ولدته أمه، وليولد ميلاداً جديداً.. عارياً جسداً، وروحاً، عقلاً وقلباً..

ليكن الوجودى ابن الطبيعة.. لا ابن المجتمع، ولا ابن العقيدة، ولا ابن أبويه!!

ليتعر جسده، فلا يندثر بشىء فى برد أو حر..

وليتعر روحه.. فلا يتجمل بخُلق أو فضيلة..

وليتعر عقله.. فلا يمسك برأى، ولا يحتفظ بفكرة..

وليتعر قلبه.. فلا ينبض بحب أو بغض، ولا يخفق بشفقة أو رهبة..

إنه إذ يفعل ذلك يكون الإنسان الذى عرف ذاته، وحقق وجوده، وعاش حياته، وملك أمره، وأصبح سيد نفسه، وأطلق إنسانيته من القيود التى كبلها بها الدين والمجتمع ظاهراً وباطناً..

يقول الفيلسوف الوجودى المعاصر (كارليل) مخاطباً الإنسان بلسان الدين الوجودى:

(لماذا تبكى وتنوح مثل الجبان؟ لماذا تترنح خائفاً مضطرباً أيها الإنسان المحتقر؟

أليس لك من قلب؟ ألا تقدر أن تتحمل ما يأتى به الدهر، متجاهلاً كل صروفه، فتطأ النار بقدمك وإن كانت تلتهمك؟.

إن أى توقف أو تردد إزاء أى عمل تشتهيه النفس، أو يهفو إليه القلب، هو فى مذهب الوجودية كفر بالوجود الإنسانى، وإنكار لذات الإنسان.. وإن أية نظرة إلى السماء، لاستشارتها فى حل أمر أو حرمته هو شرك بعبادة المرء لذاته)

يقول الفيلسوف الوجودى (نيتشه): (لا نريد ملكوت السموات، فنحن بشر.. نريد ملكوتاً أرضياً.. طوبى للنقية قلوبهم.. لأنهم لا يعاينون الله!!)..

ثم يجىء من بعده (سارتر) ليدفع بالوجودية إلى قاع الهاوية التى كانت تدحرج على دركاتها، فيشرح لأتباعه الوجودية شرحاً واضحاً صريحاً، ويقول: (الوجودية) هى توديع ما يسميه الجبناء وجداناً، وضميراً، والاستجابة إلى داعى الحيوانية، وتلبية الوجودى كل ما تمليه عليه شهواته.. ونبذ كل التقاليد والتعاليم الاجتماعية، وما تواطأ الناس عليه من الجهة

الأخلاقية، وتحطيم القيود التى ابتدعتها الأديان والفلاسفة، وتبنتها المدنية.. ومن ثم فعلى الوجودى أن يطلق الماضى، وأن يسلخ نفسه منه، متجهاً إلى الأمام، إلى المستقبل قفزاً.. إلى المصير المحتوم.. إلى الموت.. إلى العدم الأبدى!

إن الوجودية - **وهى قمة الدعوات المادية فى هذا العصر - قد سلبت الحياة كل معنى**، وجردتها من كل حكمة، وحرمتها الفزع إلى العناية الإلهية، والرحمة الربانية عند الشدائد والمحن، وقطعت الإنسان عن كل أمل فيما بعد الموت..

ولا أدرى كيف تكون الحياة إذا غربت من آفاقها العقيدة الدينية والروابط الاجتماعية، والتقاليد الإنسانية التى تواضعت الأجيال على احترامها، والتقيد بها؟ **ألا يكون ذلك ردة إلى** عالم الحيوان، بل وإلى أحط أنواع الحيوان؟

وليست جناية الوجودية وما إليها من الدعوات الملحدة - ليست جنايتها على الإنسانية، فى أنها عزلت الشباب عن المجتمع الذى يعيش فيه، وجلعت منه عدواً يحارب مجتمعه، ويهدم كل بناء قائم فيه - وإنما جنايتها فوق هذه الجناية أنها حرمت الإنسانية ما كان لها أن تكسبه من إضافات جديدة، تضيفها إلى رصيدها من المواليد البكر فى مختلف العلوم والفنون والآداب التى يجنيها الشباب من مغارس الحياة، ويطولها بيده القوية، ويعتصرها بأمله المتفتح.. فالشباب هو طليعة الحياة فى كل عصر، وهو المهيأ لاستقبال الجديد من دعوات الحق والخير، إذا هو سلم من تلك الآفات التى تتسلل إليه من الدعوات الضالة المنحرفة، التى كل همها هو أن تقطع كل صلة بين الشباب وبين الدين، وأن تحول بينه وبين أن يروى أشواق نفسه من موارد العالم العلوى، على حين تحول مجرى هذه الأشواق إلى الجانب الحيوانى فى الإنسان، الذى هو فى الشباب طبيعة غالبة، لا يكبح جماحها إلا الدين، ولا يلوى زمامها إلا صوت الحق يهتف بالشباب أن يتسامى بإنسانيته، وأن يعلو فوق طبيعة الحيوان..

(يا معشر الشباب.. من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحفظ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم.. فإن الصوم له وجاء)..

هذه دعوات رسول الله إلى الشباب، وتلك تربيته لهم، وذلك هو الدواء الذى يقدمه للشباب، ليستشفى به من أخطر داء يتهدده.. إنه التعفف، والتصون بالزواج، لمن كان قادراً على حمل تبعات الزوجية.. فمن قصرت يده عن ذلك فليكسر حدة هذه الفورة التى تغلى بها مراحل الشباب بالصوم، قربة لله، وجهاداً فى سبيل الله، يجاهد به المرء هواه، ويقهر به شيطانه الذى يوسوس له..

إنـه ليس إلا الـدين حصنـاً يتحصن بـه الـشباب مـن جهـالات الـشباب وصـبواته، ولـيس إلا العبـادات والطاعـات لله، يتربـى عليهـا الـشباب، وينـشأ عليهـا مـن مطـالع الـصبا، حتـى تتوثـق الصلة بينـه وبـين الله، وحتـى يقـوم فـي نفسه وازع يزعـه، بمـا يطلـع بـه عليـه مـن جـلال الله، وعظمة الله، وما يدعوه إليه من إحسان الله ورضوانه..

والـصلاة هـى أول خطـوة يخطـو بهـا الـصبى فـى طريقـه إلـى الله، فيضـع بهـا قدمـه علـى صراط الله المستقيم، وذلك قبل أن تتحرك شهواته، وتنطلق أهواؤه، فإذا دخل مرحلة الـشباب دخلها ومعـه هذا الرصيد العظيم من تقوى الله، ومراقبتـه، فـلا يقـع فريسة سـهلة فـى مراتـع الإثـم، فـإن زل زلـة، أو سـقط سـقطة، وجـد مـن دينـه قـوة تعينـه علـى أن يقـف علـى قدميـه، ويواصل مسيرته على طريق مستقيم إلـى الله، يستغفر لذنبـه، ويتطهر بالتوبـة مـن مأثمـه.. ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ {النساء/١١٠}

إن مسئولية الآباء، والمعلمين، والقائمين على أمر الشباب فـى أى موقـع مـن مواقـع الحيـاة مسئولية تقوم على أعظم أمانة حملها الإنسان، هى أمانة إعداد الشباب للحيـاة إعداداً صـالحاً، يحفظ عليه سلامة فطرتـه التـى فطره الله عليهـا.. وأن التفريط فـى هذه الأمانـة - بإهمالهـا أو تضييعها - هو خيانة لله، وجناية على حاضر الإنسانية ومستقبلها..

أخطار مرحلة المراهقة وكيف عالجتها التربية الإسلامية

تقتضى التربية القويمة للمراهق دراسة واعية لخصائص مرحلة المراهقة وسماتها الجسمية والعقلية والنفسية والاجتماعية. والتعرف على أسباب مشكلات المراهق الإنفعالية لكى يصبح المربى على بينة من الطابع العام لميوله وغرائزه ودوافع سلوكه، فهذا هو المدخل العلمى لاختيار أسلوب التربية المناسب الذى يعاون المراهق كما يعاون أبويه والقائمين على تربيته على عبور تلك المرحلة الحرجة بسلام، ولقد أوصى عقبة بن أبى سفيان مؤدب ولده فقال: «كن لهم كالطبيب الرفيق الذى لا يعجل بالدواء، حتى يعرف الداء».

وإذا عرفنا أن مرحلة المراهقة هى مرحلة التكوين الحقيقى للاتجاهات النفسية أدركنا أن المراهق لو ترك وشأنه فى تلك المرحلة الحرجة والخطيرة، فسوف يكون وحيداً فى مهب الرياح والعواصف الهوجاء التى تستغل ما هو واقع فيه من فراغ فكرى ودينى فتملأ قلبه ونفسه بالمعتقدات الفاسدة والأفكار الضالة التى لا يكاد عقله الناشئ يتلقاها حتى يتلقفها كما قال الشاعر:

أتانى هواها قبل أعرف الهوى ... فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وأهم ما يتعين على المربين والدعاة أن يضعوه فى اعتبارهم وهم يخططون لتلك المهمة العظمى هو أن يدركوا بكل الوعى والفهم أنهم لا يواجهون فقط تحدى خصائص المراهقة بقوة غرائزها وعنادها والميل إلى مقاومة توجيه الآباء والمربين والنزعة الاستقلالية والميل إلى المناقشة والجدل وخاصة فى مسائل الدين إلى حد الشك، بل عليهم أن يدركوا أنهم يواجهون أيضاً تحدياً آخر هو جهد أعداء الدين والأمة لمحاولة جذب المراهق بعيداً عن الدين والقيم والأخلاق الفاضلة مستخدمين من أساليب التشويق ما يسحر ألباب تلك البراعم البشرية الغضة، ويزين لها طريق الغواية والانحراف. وعملاً بمبدأ «الوقاية خير من العلاج» فإنه يتحتم على الآباء والمربين والدعاة أن يدركوا أن تلك المرحلة من العمر هى الأوان المناسب لجهدهم الواعى المكثف والعمل الموصول للتربية الدينية والخلقية وتكوين الاتجاهات القويمة لدى شبابنا ووقايتهم من الانحراف بكل أشكاله.

ولعل هذا هو بعض ما يفهم من قول الرسول الكريم ﷺ "الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم" رواه ابن ماجة فإن من شب على شيء شاب عليه، ونفس المراهق تتأثر بالخير كما تتأثر بالشر، وتتطبع فيها الأخلاق الحسنة كما تنطبع فيها الأخلاق السيئة، فإذا وجد فى هذه المرحلة الحرجة من يحكم تربيته، ويحسن تأديبه، ويسلك به سبيل الاستقامة وطريق الأدب والكمال، شب حسن الأخلاق طيب النفس متعلقاً بآداب الفضيلة، متمسكاً بحبل الهدى

والرشد، مترفعاً عن الرذائل والخطايا ويعتصم بالله ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ {آل عمران/١٠١}.

وإذا كانت الدراسات النفسية والاجتماعية لا تخفى كما قدمنا على أعداء الدين والأمة والحضارة الإسلامية، فنراهم يتصيدون الشباب فى هذه السن بالذات بتخطيط محكم مدروس لتحقيق أغراضهم، فإن على المربين والمصلحين الغيورين على دينهم وأمتهم وعلى شبابها عدة المستقبل - من باب أولى - أن يكونوا مستعدين بالخطط الوقائية الرشيدة التى تحمى شبابنا وعقائدنا وتفوت على الأعداء غرضهم، فذلك من ألزم الواجبات التى لا يصح أصلا التهاون فيها لشدة خطرها وعظم مسئوليتها قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ {التحريم/٦}.

ولقد رسم الإسلام الطريق الصحيح لبناء الإنسان صحيح النفس والعقل والجسم، بحيث يصبح لبنة قوية متماسكة وعنصراً إيجابياً صالحاً فى مجتمعه الكبير، كما رسم الطريق الصحيح لبناء المجتمع الإنسانى الفاضل الذى يشكل البيئة الصالحة لبناء الإنسان بالتنشئة السليمة والتربية القويمة، ويتيح له اظهار طاقاته المدخرة فيه.

لقد وضع هذا المنهج التربوى الشامل موضع التطبيق منذ أكثر من أربعة عشر قرناً وأثبت نجاحه التام فى المراحل التى كان تطبيقه فيها سليماً ومحكماً، وظهرت آثار هذا النجاح فى قوة بناء المجتمع الإسلامى من جهة، وفى ازدهاره وتقدمه من جهة أخرى، وأثبتت التجارب أن المسلمين لم يقصروا عن بلوغ هذا النجاح فى مراحل من تاريخهم إلا لإهمالهم بعض الجوانب الأساسية من هذا النظام فى أساليب حياتهم وتربية شبابهم.

ومن المفيد أن نتناول خصائص مرحلة المراهقة بالتحليل باعتبارها التحدى الأول الذى يواجه المربين والدعاة، وقد رأينا أن يكون تحليلنا موضحاً لما بين بداية المراهقة ونهايتها من فوارق، يلزم أن نكون جميعاً على علم بها لأهميتها. وقد اتفق علماء النفس على أن المراهقة المبكرة تمتد من سن الثالثة عشرة إلى السادسة عشرة وأن المراهقة المتأخرة تمتد من السابعة عشر إلى الحادية والعشرين، وسوف نتناول كلاً منهما من حيث الخصائص الجسمية والعقلية والثقافية والنفسية والاجتماعية بإيجاز.

أولاً - المراهقة المبكرة (١٣ - ١٦ سنة)

١ - السمات الجسيمة

- نمو جسمى سريع لا يتناسب مع معدل نمو القلب والدورة الدموية.

- نمو عضلى وعظمى سريع لكن النمو العظمى يكون أسرع من العضلى. فتطول الذراعان مثلاً دون أن تنمو عضلاتهما نمواً مناسباً، ويسبب ذلك ميلا نحو الخمول والكسل والتراخى وعدم دقة الحركات.

- فى نهاية المرحلة تكتمل مرحلة البلوغ وغالباً ما يبدأ التغير فى الصوت بين نغمات حادة دقيقة وبين نغمات ضخمة خشنة تؤدى غالباً إلى الإحساس بالخجل.

- زيادة نشاط الغدد النخامية والتناسلية مما يحدث تغيراً فى شكل الأعضاء التناسلية يصاحبه تيقظ الاهتمامات الجنسية، ومزاولة العادة السرية فى أغلب الحالات.

- يبدو الاهتمام الشديد بالجسم مع القلق للتغيرات المفاجئة فى النمو الجسمى.

- زيادة الشهية للطعام، والرغبة فى الراحة والنوم.

- تقترب حالة المراهق الصحية العامة من حالة المرض مع تعرضه للإصابة بفقر الدم (الأنيميا) وتقل مقاومته للأمراض.

٢ - السمات العقلية والثقافية

- تبدأ الفروق الفردية فى النواحي العقلية تتضح وتبدأ قدرات واستعدادات المراهق فى الظهور.

- يصبح المراهق قادراً على تركيز الانتباه فى المحاضرات والأحاديث الطويلة، وخاصة إذا اتفقت مع ميوله ورغباته.

- يبدأ شغفه بالعلوم وخاصة تلك المتصلة بالبحر والجو، وكذا يبدأ ميله إلى الرحلات والتجوال بهدف اكتساب المعارف الجديدة وزيادة خبراته.

- يبدأ فى البحث فى مسائل الدين والعقائد التى كان من قبل يتقبلها عن طريق الانطباع أو التقليد.

٣ - السمات النفسية والاجتماعية

- يبدأ المراهق فى التخلص من الأنانية (التى تعد من خصائص مرحلة الطفولة) وينمو لديه الإحساس بالرابطة والولاء للجماعة، ويصل هذا الولاء أحياناً كثيرة إلى حد التعصب الأعمى.

- يتصف المراهق بالخجل نتيجة للتغيرات المفاجئة، ويميل إلى التردد لعدم ثقته فى نفسه، وعدم فهمه لطبيعة تلك التغيرات ومداها.

- ينزع إلى التذمر وإلى الانسحاب من سلطة الأبوين إلى سلطة الجماعة، وقد يصل به ذلك إلى حد الثورة والتمرد.

- يميل إلى اختيار أصدقائه بنفسه، ويرفض أن تفرض الأسرة عليه الأصدقاء.

- تبدأ مرحلة من الاضطراب الإنفعالى، ومن الحساسية الشديدة للنقد، ويزيد لديه الاعتزاز بالنفس.

- يهتم المراهق بمظهره ويميل إلى لفت الأنظار إليه (مثل لبس الملابس الملونة).

- يتميز النمو الوجدانى بحب العظماء والزعماء ويتخذ منهم مثله العليا.

- يميل إلى مشاركة الكبار ألعابهم وتقليدهم، ويتقلب فى تصرفاته بين سلوك الكبار والصغار.

- تبدو انفعالاته عنيفة مع عجزه عن التحكم فيها ويثور لأتفه الأسباب.

- بعض المراهقين يتعرضون لليأس والحزن والآلام النفسية بسبب تقاليد المجتمع التى تحول بينهم وبين تحقيق رغباتهم، وقد يؤدى بهم ذلك إلى التفكير فى الانتحار.

- تتكون لدى المراهق بعض العواطف الشخصية نتيجة لنمو الذات.

ثانياً المراهقة المتأخرة (١٧ - ٢١)

١ - السمات الجسمية

- يحدث استقرار فى النمو الجسمى من حيث الحجم والوزن، يصاحبه بعض النمو فى العضلات والصدر والكتفين، ويصل المراهق إلى النضج البدنى تقريباً ويتحسن فى التوافق العضلى العصبى (كالسيطرة على الحركات والتحكم فيها).

- يميل المراهق إلى الحركة والنشاط بأكثر مما يملك من طاقة، فهو مثلاً يرهق نفسه بالتمرينات البدنية، حتى يقوى عضلاته، دون النظر إلى حدود قدرته وطاقته.

- يسعى إلى اكتساب الرشاقة بالتدرب على أنواع الرياضة الفردية التى تؤدى إليها.

- تنضج لدى المراهق نزعات الرجولة، ويصل إلى النضج الجنسى.

٢ - السمات العقلية والثقافية

- يكتمل نضج القدرات العقلية المختلفة وتتضح الفروق الفردية.

- يتميز المراهق بالطابع الخيالى، ويتجه إلى الفنون الجميلة، والقراءة التى تساعد على صقل خياله.

- تنطلق أحلام اليقظة كوسيلة لإرضاء النفس وكمتنفس لطموحه وآماله (سوف نتناولها فيما بعد).

- يميل المراهق إلى دراسة الأجهزة وفك أجزائها وتركيبها.

- يفضل المراهق التذكر المبنى على الفهم ويكره أسلوب الحفظ.

- يبدأ اهتمامه بالتخصص العلمى أو المهنى ويزيد تفكيره فى أمر العمل والمستقبل.

- يهتم ببحث قضايا الدين والفلسفة، وبالكشف عن الأسباب والمسببات مما قد يصل إلى مستوى الشك.

- تزيد رغبته فى المناقشة والجدل.

- قراءاته المفضلة قصص المغامرات والمخترعات والقصص الغرامية والقصص البوليسية والغامضة، والصحف والمجلات مع الميل إلى أخبار الرياضة والجريمة.

٣ - السمات النفسية والاجتماعية

- يتحول المراهق من الاعتماد على الغير إلى الاعتماد على النفس.

- يميل إلى النقد وإلى تغيير الأوضاع ويبدى مقترحات عملية للإصلاح.

- يميل إلى مقاومة السلطة والاحتجاج والغضب والتمرد والثورة ضد الأسرة والمدرسة.

- تزيد رغبته فى مشاركة أفراد الجماعة من أصدقائه، وتبادل الحديث معهم خاصة ما يتعلق بأخبار الرياضة والجنس والملبس، ويزيد شعوره بالمسئولية نحو الجماعة.

- يزيد ميله نحو اختيار الأصدقاء بنفسه، ويتأثر بهم من الناحية الخلقية، مع الرغبة فى التحرر والانطلاق.

- يميل أفراد كل جنس إلى الجنس الآخر، ويزيد الاهتمام بالسلوك فى مواجهة الجنس الآخر.

- يزيد اهتمام المراهق بالمظهر والتأنق فى الملبس وخاصة ما يلفت النظر منه.

- يزيد ميله إلى اكتشاف البيئة والمخاطرة والمغامرة والتجول والارتحال وإلى الحفلات الجماعية والألعاب المشتركة (وخاصة تلك التي يشترك فيها الجنسان).

- تتجه عواطفه نحو المعانى والأشياء الجميلة.

- يميل إلى الزعامة والقيادة.

هذا عرض موجز لخصائص المراهقة الجسمية والعقلية والنفسية والاجتماعية فى بدايتها وعند نهايتها ومنه تستبين أبعاد أول التحديات التى تواجه المربين والدعاة، ويبقى أن نتناول ثانى هذه التحديات وهو ومشكلات المراهقين الانفعالية وأسبابها.

ومن ألزم الأمور للآباء والمربين والدعاة أن يتفهموا الأسباب الكامنة وراء مشكلات المراهق الإنفعالية، فإن الجهل بهذه الأسباب أو إهمال النظر إليها يؤدى إلى عواقب وخيمة لعل من أبرزها حدوث «التصادم» بين المراهق وبين القائمين على تربيته أو توجيهه، وهو الأمر الذى يجب تفاديه والحرص على منعه بكل إصرار.

١ - العجز عن التكيف مع البيئة

وأول أسباب حساسية المراهق الإنفعالية واضطرابه الإنفعالى هو عدم قدرته على التلاؤم مع البيئة التى يعيش فيها، إذ يدرك المراهق عندما تتقدم به السن قليلاً أن الطريقة التى يعامل بها لا تتناسب مع ما وصل إليه من نضج وما طرأ عليه من تغير.

فالبيئة الخارجية التى تتمثل فى الأسرة والمدرسة والمجتمع لا تعترف بما طرأ عليه من نضج أو لا تقيم له وزناً، ولا تقرر رجولته وحقوقه كفرد له ذات مستقلة.

ويفسر المراهق كل مساعدة يقدمها له أبواه على أنها تدخل فى شؤونه فيعترض على ذلك، ويظهر أعتراضه فى صور عدة كالعناد والسلبية وعدم الاستقرار أو اللجوء إلى بيئات أخرى يجد عندها متنفساً للتعبير عن حريته المكبوتة.

٢ - مطالبته بسلوك ينم عن النضج

وما يتسبب فى اضطراب المراهق الإنفعالى أنه فى الوقت الذى لا يعترف فيه أبواه بما وصل إليه من نضج، يراهم ينتظرون منه سلوكاً ينم عن النضج، الأمر الذى يسبب له حيرة واضطراباً.. والسر فى ذلك أن ما يطرأ عليه من نمو فى الجسم «يخدع» أبويه فيجعلهما يتوقعان منه نضوجاً فى سلوكه الفعلى والاجتماعى. ولما كان النضج الجسدى فى مرحلة المراهقة يتم بسرعة فى عامين أو ثلاثة - كما بينا - فإن هذه الفترة تعد غير كافية لتحقيق نضج المراهقين من الناحية العقلية يقابل ما طرأ على أجسامهم من نمو سريع، ونتيجة لذلك قد يقوم المراهقين ببعض التصرفات الصبيانية وهذا أمر طبيعى، لكن الكبار لا يرحمونه فيستنكرون تلك التصرفات مما يشعره بخيبة الأمل وعدم الأمن.

أضف إلى ذلك أن الأسرة تطالبه بتحمل بعض المسؤوليات التى لا تتفق مع قدراته ومستوى نموه، فهو لم يعد فى نظرها طفلاً تجاب كل مطالبه دون تحمل للمسؤوليات، وهكذا يجد نفسه مطالباً أمامها بأن يعتمد علي نفسه فى وقت تعجز فيه قدراته عن تحقيق هذا المطلب.

٣ - شعوره بعدم الاستقلال والتحرر

ويلاحظ المراهق أن هناك قيوداً تفرضها عليه الأسرة والمدرسة وتحول بينه وبين ما يتطلع إليه من استقلال وتحرر، لذلك نراه يعتبر كل شىء فى المنزل أو المدرسة مصدر ضيق له ويثور على كل ما يوجه إليه من نصح ويعتبر هذا النصح اعتراضاً على حريته واستقلاله، فيميل دائماً إلى التمرد وتحدى الآراء والأوضاع القائمة.

٤ - العجز المالى

ومن بين الأسباب التى تعمل على اضطراب المراهق وعدم استقراره الإنفعالى عجزه المالى الذى يقف دون تحقيق رغباته، فقد يجد نفسه وسط جماعة من رفاقه ينفقون عن سعة وهو فى الوقت ذاته عاجز عن مجاراتهم أو المشاركة فى مسراتهم، وكل ذلك يسبب له الضيق والشعور بعدم الطمأنينة.

٥ - الدافع الجنسى

وليست العقبات المالية قاصرة على مشاركة رفاقه فى مسراتهم، بل إنه فوق ذلك يشعر أنه قد اكتمل من الناحية الجنسية، وأنه يريد أن يعبر عن تلك الدوافع الجامحة فى نفسه بالزواج، غير أنه يصطدم بالواقع، فالقصور فى الموارد المادية يقف هو وغيره من العوامل الأخرى بينه وبين ما ينشد من استقلال ومن التعبير عن دوافعه الطبيعية، وهنا تزيد حدة التوتر الإنفعالى، اللهم إلا إذا وجد بديلاً يعبر به عن الدافع الجنسى القوى، ويكون الاحتلام من بين الوسائل الطبيعية للتعبير عن هذا الدافع، وعلى الرغم من أن هذه عملية طبيعية، إلا أنها تسبب ضيقاً لدى الكثير من الفتيان المراهقين إذ يعتبرونها خطيئة، ويزيد الطين بلة أن بعض الآباء لا يترفقون بأبنائهم نتيجة لسوء التقدير والفهم، وهكذا يصبح الأمر الطبيعى مصدراً للقلق والصراع العقلى، قد يسبب فى بعض الأحيان شقاء يستمر مدى الحياة.

وما يقال عن الاحتلام يقال أيضاً عن العادة السرية. إذ يحدث الصراع العقلى بسبب ممارستها وخاصة إذا تمكنت من المراهق بدرجة زائدة عن الحد، كما يزيد هذا الصراع إذا تعرض المراهق للوم أو التقريع مما يضاعف شعوره بالخطيئة والخوف.

أما أحلام اليقظة فهى ظاهرة عقلية فى حياة الإنسان، غير أنها تكون واضحة فى مرحلة المراهقة، وهى وسيلة يعبر بها المراهقون عن ميولهم ورغباتهم عن طريق الخيال. وهى تنقسم إلى طائفتين: الأولى أحلام تدل على الشعور بالقوة والعظمة والسيادة، كأن يتخيل المراهق نفسه بطلاً قوى الجسم مفتول العضلات رأى فتاة تغرق فى البحر ولا تجد فيمن حولها من يجسر على إنقاذها فتأخذه الحمية، فيقفز إلى الماء معرضاً نفسه للخطر وينقذها، فهذا النوع من أحلام اليقظة يجد فيه المراهق كثيراً من التعويض عما يشعر به من عجز فى قدراته. أما الطائفة الثانية: من هذه الأحلام فعتبر عن الشعور بالنقص وهى ضرب من «حب التألم» (أو ما يسمى بالماسوشية)، وتلجأ الفتيات المراهقات إلى هذا النوع من أحلام اليقظة عادة فى حالات القنوط واليأس الشديد فتتخيل الفتاة نفسها فى مواقف تسبب لها الآلام والتعذيب، وهى تجد فى ذلك لوناً من الراحة النفسية شأنها فى ذلك شأن من يبكى عند مشاهدة مسرحية حزينة إذ يجد فى البكاء راحة للنفس.

وما يعنينا فى أحلام اليقظة هو أنها سلاح ذو حدين، فكما أنها تحفز همة المراهق وتدفعه إلى العمل لتحقيق ما يفكر فيه فى عالم الخيال، وتكون وسيلة لتوجيه قدراته على الابتكار والإبداع وتنميتها، إلا أنها فى الوقت نفسه تعتبر مضيعة لوقته الذى يمكن أن يستغله فيما ينمى ميوله من عمل ونشاط. ثم إن بعض المراهقين - وهنا موطن الخطر - يجدون إشباعاً لحاجاتهم فى خيالهم، ومن ثم لا يبذلون إلا جهداً قليلاً لتحقيق النجاح الواقعى فى حياتهم.

وقد ثبت علمياً أن مرحلة المراهقة هى المرحلة التى تتكون فيها الاتجاهات النفسية بصورة حقيقية لها أثرها وفعاليتها.

ويعرفها علماء النفس بأنها هى «ميل عام مكتسب وثابت نسبياً يؤثر فى دوافع الفرد ويوجه سلوكه»، كالميل إلى أشياء أو موضوعات معينة تجعل الفرد يقبل عليها ويحبها أو يرحب بها أو يعرض عنها أو يرفضها، «واتجاه التدين» من أمثلة الاتجاهات النفسية.

وبمعنى آخر فإن الاتجاهات النفسية تمثل مجموعة المعتقدات والمشاعر والميول السلوكية التى يحملها الفرد تجاه موضوع معين، وبذلك فإن السلوك الاجتماعى للإنسان فى كافة مظاهره وأشكاله يتأثر ويتحدد بمجموعة اتجاهاته.

ويرى علماء النفس أن الاتجاه النفسى يتكون من عناصر ثلاثة هى:

العنصر الفكرى أو العقيدة - العنصر العاطفى أو المشاعر - الميل للتصرف والسلوك بشكل معين.

ومن أهم ما ينبغى أن يعرفه المربون والدعاة هو كيف تتكون الاتجاهات النفسية، والواقع أن هناك طرقاً كثيرة لتكوينها نذكر منها ما يلى:

١ - التقليد والمحاكاة أو تقبل المعايير الاجتماعية وغيرها دون نقد أو مناقشة ويكون ذلك عن طريق الإيحاء، وتتجلى هذه الطريقة فى مرحلة الطفولة بدرجة كبيرة، فالطفل يكتسب أغلب اتجاهاته (ومنها اتجاه التدين كما ذكرنا) عن طريق الأسرة التى نشأ فيها هكذا تتضح أهمية الدور الذى تؤديه الأسرة فى تنشئة الإنسان وتكوين شخصيته.

٢ - الانفعالات «الحادة» ولها أثر قوى فى تكوين الاتجاهات، فأسلوب التربية الخاطئ (الذى يقوم على العنف مثلاً) قد يؤدى إلى تعريض المراهقين لخبرات إنفعالية حادة تحوله عن اتجاه التدين.

٣ - وتتكون الاتجاهات وتشكل طبقاً «للمعلومات» التى تتوفر لدى الفرد عن الموضوعات المختلفة (كالدين مثلاً).

٤ - وتتكون أيضاً فى أثناء محاولة الفرد إشباع حاجاته المختلفة.

٥ - وتتأثر اتجاهات الفرد بطبيعة الجماعات التى يتفاعل معها مثل الأسرة وجماعات الأصدقاء وجماعة العمل.

ومن ذلك يتضح أن الطريق الصحيح لتكوين الاتجاهات النفسية نحو موضوعات معينة كالتربية الدينية لا يتم أساساً من خلال النصح والإرشاد وإنما يجب أن يتغلغل فى حياة المراهق من الناحية العملية أى من خلال الممارسة الفعلية والخبرة الذاتية والتفاعل الاجتماعى فى البيئة المنزلية والمدرسة وغيرها وفى أثناء الرحلات والأنشطة المختلفة حيث يمارس المراهق ما يستهدف تحقيقه من اتجاهات.

ولما كانت الرغبة فى الشيء من أهم الدوافع إليه، فإن «الترغيب» يعد من أفضل أساليب خلق الاتجاهات، كما أن القدوة الطيبة ذات أثر كبير فى هذا المجال.

وبعد أن استعرضنا أهم خصائص المراهقة وسماتها ومشكلات المراهق الانفعالية وأسبابها، ثم الاتجاهات النفسية وكيف تتكون، نستطيع ن نتناول الآن بعض عناصر التربية الإسلامية لتربية المراهق

١ - التكليف بالوسع

يوجه الإسلام إلى أن تكون معاملة المراهق قائمة على سياسة واعية رشيدة تقدر طبيعة المرحلة وما يناسبها فى المعاملة بحيث لا تكلف المراهق فوق ما يطيق. والواقع أن الإسلام

عنى بمبدأ «التكليف بالوسع» كما يفهم من قوله تعالى:﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ {البقرة/٢٨٦}

من أجل ذلك لا يطلب الأب مثلاً من ابنه المراهق أن تأتى تصرفاته متسمة بالنضج الذى يتوقع من الكبار فيعرضه للمشكلات الإنفعالية كما بينا، لأن الذى يطالبه به أمر يتجاوز قدراته الحقيقية. كذلك يوجه هذا المبدأ إلى أن نعترف للمراهق بأن مشاعره طبيعية، فلا نواجهها بالاستنكار أو التقريع أو اللوم، بل نهيئ له الفرصة من جانبنا للتعبير عن هذه المشاعر مع قيامنا فى الوقت نفسه بتوجيهه برفق وأناة.

٢ - الرفق والحب

ويوجه الإسلام إلى المعاملة بالرفق والحب، والبعد عن العنف بكل أشكاله، لأن العنف يزيد من مقاومة المراهق وعناده، ويوقعه فريسة للاضطرابات النفسية التى قد تؤدى إلى تقويض بنيانه النفسى كلية. عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف، وما لا يعطى على سواه» رواه مسلم وعنها أيضاً أنه قال: «إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ولا ينزع من شىء إلى شانه». رواه مسلم. وعنها أيضاً رضى الله عنها قالت: «جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: أتقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم.. فقال النبى صلى الله علي وسلم: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟» رواه الشيخان.

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: «ما رأيت أحداً أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ» رواه مسلم.. وقد دخل على عمر بن الخطاب رضى الله عنه أحد عماله فوجده مستقلياً على ظهره وصبيانه يلعبون حوله، فأنكر عليه ذلك، فقال عمر: كيف أنت مع أهلك؟ قال: إذا دخلت، سكت الناطق، فقال له عمر: اعتزل عملنا، فإنك لا ترفق بأهلك وولدك، فكيف ترفق بأمة محمد ﷺ؟

٣ - تنمية الضمير الدينى

لقد ثبت أن الضمير الدينى من أقوى العوامل التى تساعد المراهق على مواجهة نوازع المراهقة واضطراباتها الإنفعالية، فقد عرفنا أن المراهق ينزع فى هذه المرحلة إلى المناقشة والجدل وبخاصة فى المسائل الدينية التى كان من قبل يقبلها عن طريق المحاكاة، ويتفق ذلك زمنياً مع بلوغه سن التكليف الذى تصبح فيه التكاليف الشرعية واجباً يثاب على أدائها ويحاسب على تركها. فالطريق الصحيح الذى يتبعه المربى الحكيم هو «أن يتحاشى الصدام

بين ما يطلبه المراهق بطبعه النفسى وبين ما يطلبه الدين». وخير وسيلة لذل تنمية الضمير الدينى، لأنه هو الذى يحقق للمراهق إحساسه بذاتيته واستقلاله وشخصيته، فيندفع إلى أداء واجباته على أكمل وجه معتمداً على قوة ذاتية لا على قوة خارجية. ولا مراء فى أن الإيمان الصادق العميق يبنى ضمير المسلم ويجعله وثيق الصلة بما يمليه عليه إيمانه لا يشغله عن ذلك شاغل، ويصوره لنا الرسول الكريم فى العبادة بقوله: «إن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» رواه البخارى ثم بقوله صلوات الله وسلامه عليه: «إياك إياك أن يراك حيث نهاك» رواه أحمد ومما يدل علي عناية الإسلام بتربية الضمير الدينى، أنه لم يجعل نتيجة الخوف أمراً سلبياً وهو النجاة من العقوبة، بل جعل للخوف فوق النجاة والسلامة جزاء إيجابيا هو الثواب الجزيل والأجر العظيم.. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ {النازعات ٤٠/٤١} وقوله سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ {الرحمن/٤٦}.

فإذا عود الشباب نفسه من بداية مرحلة إحساسه بذاته أن يراقب الله تعالى عند كل عمل يعمله، موقناً أن الله تعالى مطلع على جميع أعماله ومعتقداً أنه تعالى يجازى من أطاعه برضوانه وإحسانه، وأنه ينزل غضبه ومقته على من خالفه وعصاه، إذا عود نفسه على ذلك: سهل عليه أن يفعل ما أمره الله به ويجتنب ما نهاه عنه، فإذا سولت له نفسه أن يأتى معصية ردها وزجرها، وذكرها بعزة الله وجلاله وأنه تعالى قادر على الانتقام منه ومطلع عليه لا تخفى عليه خافية: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ {المجادلة/٧} فالضمير الصافى أو القلب السليم هو النور الذى يهدى الإنسان فى مسالك الحياة ويملأ النفس اطمئناناً ورضى، فإذا ظفرنا بتربيته وإيقاظه فى الشباب فقد أقمنا أقوى دعائم التربية الناجحة والقويمة لهم. يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ {الشعراء٨٨/٨٩}.

ويقول صلى الله عليه وسلم: «ألا وأن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب» رواه البخارى.

٤ - العمل مع المراهق ومصاحبته

يقول الرسولﷺ: «الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم» رواه ابن ماجة من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

وهذا الحديث الشريف يوجه الآباء إلى مصاحبة أولادهم ومراقبتهم وتأديبهم أحسن الأدب، وقد وصل علماء النفس إلى هذا المبدأ وهم يعدونه من أفضل أساليب بناء شخصية المراهق وتربيته، فيقول واحد منهم «إن الحياة مع ولدك المراهق ليس معناها أن تحيا من أجله، فإن الحياة من أجله وحدها معناها التضحية له، ولكن اجعل حياتك مع ولدك (يريد أن يفرق بين معنى الحياة معه والحياة له) ومعنى ذلك أن يدرك كل منكما الآخر، وأن تقف إلى جواره فى لحظات الصراع ولا تتخلى عنه، وأن تمنحه المزيد من الحنان فى لحظات الهلع والهياج غير العادية، وأن تمتعه بلحظات السعادة والهدوء والسلام».

ولقد يضيق صدور بعض الآباء من سلوك أبنائهم المراهقين فينهالون عليهم باللوم والتسفيه والتجريح أو العقاب البدنى، وهذا ما ينهى عنه الدين الذى يأمر الآباء بأن يتقوا الله فى أفلاذ أكبادهم، وأن يقوموا على تربيتهم بحسن الأدب والخلق الطيب وبالوقوف إلى جانبهم فى تلك الفترة الحرجة ليأخذوا بأيديهم حتى يعبروها بسلام، وقد قال بعض الحكماء: "لا عب ولدك سبعاً، وأدبه سبعاً، وصاحبه سبعاً، ثم اترك حبله على غاربه "وفى ذلك تأكيد لمصاحبة الأب لابنه (والأم لابنتها) مصاحبة الصديق الناصح الأمين فى أخطر مراحل عمره وهى المراهقة، وهو تأكيد أيضاً لمعنى «الزموا أولادكم» فى الحديث الشريف.

فالهوة الضخمة بين أخلاقيات الكبار والصغار - كما يقول أحد علماء النفس - تكشف عن انعدام التفاهم أو الصداقة بين الآباء والأبناء، وعن أن الآباء عاجزون عن مساعدة أبنائهم والأخذ بأيديهم.. فالمراهق يعتبر نفسه قادراً على تصريف شؤونه، وأبواه لا يقرانه على ذلك، ويعبران عن آرائهما بطريقة متزمتة منفرة فيفقد المراهق ثقته بهما، ويتخذ طريقه فى السر كما يشاء. وبعض الآباء ينشغلون فى عملهم لدرجة تحجبهم عن أبنائهم، وبذلك لا يساهمون فى رعاية أبنائهم فى مرحلة هم فيها أحوج ما يكونون إلى مصاحبتهم والحياة «معهم».

٥ - الإقناع والحلم وسعة الصدر

ويدعو الإسلام إلى الاقناع والحلم وسعة الصدر وترك المجاهرة والتوبيخ لتوليد الدافع والرغبة لدى المراهق للسلوك الصحيح. فلقد عرف الشباب من قديم برقة الدين، واحتمل ذلك منه، ألا ترى الحديث الشريف كيف عد الشاب الذى نشأ فى عبادة الله من السبعة الذين يظلهم

الله بظله يوم لا ظل إلا ظله؟ وما ذلك إلا لندرة هذا النمط في الشباب وخروجه على المعتاد من جنسه.

ومن أجل هذا كان الشباب في كل المجتمعات وفي كل العصور دائماً موضع الملاحظة بالنظر إلى ظروفه النفسية والعقلية في فورة النضج التي أشرنا إليها حتى قال الشاعر:

فإن يك عامر قد قال جهلاً — فإن مطية الجهل الشباب

وقد روى أبو إمامة أن غلاماً شاباً أتى النبيﷺ فقال: «يا نبي الله أتأذن لي في الزنا؟ فصاح الناس به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قربوه، ادن. فدنا حتى جلس بين يديه. فقال النبيﷺ: «أتحبه لأمك؟ قال: لا، جعلني الله فداءك، قال: كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لابنتك؟ قال: لا، جعلني الله فداءك، كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لأختك؟ وزاد ابن عوف أنه ذكر العمة والخالة وهو يقول في كل واحدة لا، جعلني الله فداءك.. فوضع الرسولﷺ يده على صدره وقال: «اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصن فرجه، فلم يكن شيء أبغض إليه منه «يعني الزنا» رواه أحمد.

فهذه هي الحكمة في الدعوة وبها تجب القدرة. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ {آل عمران/٣١} .

وإنا لا نكون متبعين له صلوات الله وسلامه عليه حتى نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر على سنته وطريقته في التلطف وتحري الإقناع بالرفق واللين، ومن أوتي حظه من الرفق فقد أوتي حظه من خير الدنيا والآخرة، والقرآن الكريم يرشد إلى التلطف في القول والرفق في المعاملة مع تحري الإقناع، قال تعالى:﴿ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ {النحل/١٢٥}.

إن حرية الإنسان حق طبيعي وحيوي، وحقيقة بديهية في الإسلام. وقد اقتضت حكمة الخالق سبحانه وتعالى بأن يكون للإنسان الحرية في التفكير، لأن تعطيل حريته أو مصادرتها يتناقض مع مصلحته في الحياة ومع معنى العبادة التي خلقه لأجلها، ومع التكاليف التي أمره بها ولا سيما في اتباع مكارم الأخلاق واجتناب مساوئها. قال تعالى: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ {البقرة/٢٥٦} .

وقال جل شأنه مخاطباً نبيه الكريم ﷺ: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ {يونس/٩٩} وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ {يونس/١٠٨} .

والأمر الجدير بالتأمل حقاً والذى لا يصح أن يخفى علينا هو أن دعاة الإلحاد والتحلل من القيم والتقاليد، ينفثون سمومهم الفكرية بدعوى الحرية والتحرر والاستقلال فى الرأى، وهى معان تصادف هوى لدى المراهقين على وجه الخصوص، وتتفق تماماً مع حاجاتهم النفسية لتأكيد ذواتهم فنراهم - لأن نضجهم العقلى والنفسى لم يكتمل بعد - يستجيبون لها بسرعة.

فيجدر بالآباء والمصلحين والدعاة أن يجعلوا أسلوبهم فى التربية الدينية منسجماً ومؤكداً لمعنى حرية الإنسان التى قال الله تعالى فيها: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ {البلد/١٠} وقال: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ {الإنسان/٣}

وعليهم بالحلم وسعة الصدر وهم يناقشون الشباب فيما يعرض لهم من قضايا ذهنية تتعلق بالحياة أو الموت، والجبر والاختيار والفناء والخلود، والمادة والروح، والبعث والجزاء، وبالرسالات السماوية وشرائعها، والتطور البشرى ومتقضياته والنظم الاجتماعية والسياسية وفلسفتها إلى غير ذلك.

إن كمال العلم فى الحلم، ولين الكلام مفتاح القلوب، فيستطيع المربى أن يعالج أمراض النفوس وهو هادئ النفس مطمئن القلب، لا يستفزه الغضب، ولا يستثيره الحمق، وحسبنا فى هذا قول الله تعالى لإمام الداعين المربين صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ {آل عمران/١٥٩} فالداعى أو المربى الذى يضيق صدره بأسئلة الشباب ومناقشاتهم «الساخنة» سوف يدفعهم إلى الانصراف من حوله ويضيع عليهم فرصة الهداية بأنوار دينهم، ويعرضهم للوقوع فى براثن أعداء الدين والمثل والأخلاق.

٦ - الترغيب والترهيب

ولو تأملنا أسلوب القرآن فى الترغيب والترهيب، لأدركنا عظمة ما بين أيدينا من منهج هو خير المناهج على الإطلاق فى التربية، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ

﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ،وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ {الإسراء/١٠}.

ففى هذه الآية الكريمة بيان لهداية القرآن الكريم بالترغيب والترهيب، فالترغيب، بوعد الطائعين الحافظين لحدود الله تعالى بعظم الخير، وتبشيرهم بحسن المثوى، والترهيب بوعيد المخالفين الذين تعدوا حدود الله، وإنذارهم بشديد العذاب وسوء العاقبة، ثم إن الوعد بالخير يعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما، والوعيد كذلك يشمل نقمهما أو شقاءهما.. فبالوعد، ساق الطائعين إلى الجد فى الطاعة، وبالوعيد، أوقف العاصين عند حدود الأدب.

وقال تعالى ترغيباً فى جنس الطاعات: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ {النور/٥٥}

وقال جل شأنه ترغيباً فى صالح العمل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ {النحل/٩٧} وقال جل شأنه ترغيباً فى التقوى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ {الأنفال/٢٩} وقال ترغيباً فى التمسك بالدين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ {الأحقاف/١٣} ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ {مريم/٩٦} (أى يحبهم الله ويحببهم إلى خلقه) وفى صحيح البخارى عن النبيﷺ: إذا أحب الله عبداً يقول لجبريل عليه السلام: إنى أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله أحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم توضع له المحبة فى الأرض»، تلك أمثلة مما جاد فى القرآن الكريم والسُنة المطهرة فى الترغيب فى جنس الطاعات أو أنواعها أو الأخلاق الفاضلة. سقناها لبيان الأسلوب وسحره الجذاب الذى يولد الدافع النفسى إلى الطاعة، ولنقرأ قول الله تبارك وتعالى ترغيباً فى الصدقة: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ {البقرة/٢٤٥} وقوله سبحانه: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ {البقرة/٢٦١}.

أما عن الترهيب الذى جمع القرآن بينه وبين الترغيب لما جبلت عليه النفس البشرية من الرجاء والخوف فإن الله تعالى حذر عباده من معصيته بما أعلمهم به من نواميس ربوبيته، وأقامه من سطوات قهره وجبروته ووحدانيته وجعل النفوس المدنسة بالعقائد الفاسدة والأخلاق المذمومة محل سخطه وموضع انتقامه فى الآخرة والأولى، وهو فى كل حال حاكم عادل ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ {يونس/٤٤} قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ {النساء/١٤} وقال عليه الصلاة والسلام عن عقوق الوالدين: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، فقال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين» متفق عليه.

ومن أساليب الترهيب أن يقرر المربى فى أذهان الشباب أن تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقع على الذنوب، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب والبلايا فهو يسبب جناياته التى صدرت منه. فالشباب - ونضجه العقلى لم يكتمل بعد - قد يتساهل فى أمر فى الآخرة ويستخفه، ويخاف من عقوبة الله فى الدنيا أكثر، وخاصة أنه يخطو خطواته الأولى نحو بناء مستقبله، فينبغى أن يخوف بعقوبة الله فى الدنيا وبأن الذنوب يعجل شؤمها فى الدنيا غالباً، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ {الروم/٤١} وقال جل شأنه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ {الأعراف/٩٦}.

وروى الحاكم بإسناد صحيح أن النبى ﷺ قال: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه».

٧ - دور المسجد

ولست بحاجة إلى التنويه بدور المسجد فى التربية فإن من الأمور الحيوية فى عصرنا أن يعود المسجد إلى سابق عهده مركزاً للإشعاع الدينى، ومنتدى للثقافة والتوجيه الروحى، وأن تكون له جاذبيته فى نفوس الشباب، وأن توجه دروسه وعظاته نحو تزويدهم بالفضائل الدينية التى تطهر قلوبهم، وحل مشكلاتهم العاطفية والعقلية، وتثبيت قلوبهم بالإيمان والعقيدة، وأن يجدوا الإجابة الصحيحة الشافية عما يشغلهم من قضايا حياتهم، ويمكن أن يلحق بمبنى المساجد الرئيسية مؤسسات اجتماعية مختلفة.

٨ ـ رعاية اليتيم

أما اليتيم ـ وهو من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال ـ فله شأن أكبر وأظهر فى الدلالة على عناية الإسلام بتربية النشء، وتوفير المناخ الصالح لتلك التربية، فيقول الله عز وجل: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ {البقرة/٢٢٠}

فالآية الكريمة توجه الوصى على اليتامى إلى الإصلاح لهم بالتربية والتهذيب وإلى حفظ أموالهم وتنميتها، فهم إخوانه فى الدين، ومن حق الأخ أن يخالط أخاه على الوجه اللائق الذى فيه صلاحه.. كما يوضح القرآن واجب الوصى فى المحافظة على مال اليتيم ويحذره من استغلاله، فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ {الأنعام/١٥٢}.

وقد حث الرسول ﷺ على رعاية اليتيم فقال:

«أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا» رواه البخارى ومسلم (وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى ليدل على أنهما قرينان أو صنوان).

«خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه» رواه ابن ماجة.

هذا إلى قول الله لرسوله بعد أن ذكره بفضله عليه حالة يتمه ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾{الضحى/٩} وقد قال الإمام محمد عبده رحمه الله فى تفسيره لهذه الآية: لو علم الناس ما فى إهمال تربية الأيتام من الفساد فى الأمة. لقدروا عناية الله بأمرهم حق قدرها، ولبذلوا من سعيهم ومن مالهم فى إصلاح حال الأيتام كل ما استطاعوا، ولو أحس كل واحد بأن الموت قريب منه، وأنه هدف ليناله، لا يدرى متى يأخذه عن ولده، فيتركه إما غنياً يأكل ماله الأوصياء، أو فقيراً يستذله الأدنياء، لتسابقوا إلى تقديم أمر اليتيم.

٩ ـ المناخ الدينى فى البيت والمدرسة

ومن أهم عوامل النجاح فى التربية القويمة توفر المناخ والروح الدينى ممثلاً فى صلاح الوالدين والكبار من الأسرة والمربين وقيامهم بفرائض الدين وبعدهم عن المنكرات والآثام، والتزامهم حدود الفضيلة والأدب، وتوفيرهم الطمأنينة والرعاية والحنان للصغار، وتعهدهم بالتعليم وتلقينهم مبادئ الدين فى القالب المناسب لنموهم وغرس بذور الاعتقاد والإيمان فى نفوسهم.

ومن الثابت عملياً أن الطفل الذى ينشأ فى بيت متدين يبدأ حياته محصناً من كثير من الأمراض السلوكية والفكرية، ويتميز فى مرحلة المراهقة بمجاهدة النفس، وعدم الاستسلام لشهواتها ونوازعها الضارة.

* * *

وبعد فسوف يسأل الآباء والمربون عما فعلوا لتربية الأبناء، وهو ما يفهم من قول الرسول ﷺ: «إن الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه، حفظ أم ضيع، حتى يسأل عن أهل بيته». رواه ابن حبان.

مشكلة التربية والثقافة بين استقرار المبادئ وتطور العلم

لقد صار من الأمور المألوفة التى تلوكها الألسنة وترددها الأصوات فى كل صباح ومساء، أن العصر الذى نعيش فيه الآن هو عصر جديد، يختلف عما سبقه من العصور اختلافا كليا باختراعاته التى تبهر الأبصار، وابتكاراته التى يصم دويها الأسماع. وذلك بسبب الحظ المعجز الذى ظفرت به العلوم الطبيعية والكيميائية، لا سيما بعد الحرب العالمية الثانية، وبسبب الدور الذى مثلته تلك العلوم فى زلزلة الأرض التى كانت البشرية تعيش عليها هادئة ساكنة، والتى كانت إلى ما قبل هذا العصر راسية راسخة، وبسبب تلك الهزات العنيفة التى احدثتها نتائج البحوث المعاصرة فى أمزجة بنى الإنسان وأعصابهم وطباعهم ومعاملاتهم المتبادلة فيما بينهم، وبسبب تعلقات بعضهم بالبعض الآخر رغم الاستقلال الظاهرى الذى ليس سوى أردية شفافة، وصور براقة للحرية الزائفة التى يخدع بها الجميع أنفسهم وغيرهم، من حيث يشعرون أو لا يشعرون..

حقا إنها حقبة جديدة تعلن بإلحاح عن حقها فى تجديد التفكير والإدراك، وفى تطوير التعليم والتثقيف. وهى تحاول أن تطغى، فتعرض المعارف التقليدية للخطر بسبب الطوفان الذى لا ينقطع أمواجه العاتية، ولا تقف تياراته المتباينة، بل المتضاربة، وما تقذف به إلى عالمنا من مجتلبات تتحدث كلها عن الكشوف العلمية وأقلها نافع، وأكثرها مدمر، والتى هى - فى أكثر الأحايين لسوء حظ الإنسانية - بين أيد شريرة، ومملوكة لنفوس خبيثة.

ومما لاشك فيه أن هذه الزلازل المجتاحة، تقتضى من الصفوة المصلحة العناية بالمبادئ السامية أكثر من ذى قبل، وتتطلب منها دقة مزج تلك المبادئ بالمواد التعليمية على صورة فنية عميقة.

مشكلة التعليم والمناورة السياسية

غير أن مشكلة التعليم فى الآونة الراهنة فى كل مكان، تغلى وتفور وتقذف بألوان من العنف تباغتنا قوتها فى الظروف العادية فضلاً عن ظروف المناورات السياسية التى تنسجها الأيدى المغرضة التى تحركها من وراء ستار الأحداث المدرسية الخاصة، أو إصلاحات البرامج المحلية، أو تأمين مستقبل الشباب، وما إلى ذلك من زوائف براقة ظاهرها فيه الرحمة، وباطنها من قبله العذاب، ولكن لا ينبغى البتة أن يفهم من هذا أن الشباب ليس له مشاكل خاصة، تقتضى سرعة الحل فهذا أمر لا يعارض فيه عاقل ويجب على الدولة أن تعتنى به أشد الاعتناء.

التوازن بين المبادئ القديمة والحديثة

من أجل هذا كله كانت مشكلة التجديد الحادة المدببة الشائكة عسيرة أو غير ميسورة الحل فهنا - كما فى كل مكان آخر - نشاهد إحدى المعضلات الرئيسية تفرض نفسها بهيئة إجبارية لا يمكن تجنبها. وهى معضلة التوازن الذى يجب تثبيته بين قوى التقاليد أو معرفة القواعد الأساسية، والمبادئ الراسخة التى عليها تعتمد الحياة الجوهرية البشرية من جهة، والقوى التجديدية التى تتألف من تطورات العلوم، ومن النظريات الاجتماعية المعاصرة من جهة ثانية.

ومما لا ريب فيه أن هذه القوى تتصادم فى صلابة وقسوة. وإذا لم تنجح فى أن تتبادل الانسجام وأن تتسق فيما بينها اتساقاً كافياً، فإنها سوف تتبادل الهدم والتحطيم.

لابد من جهد الشباب والشيوخ

ومن ثم لم يكن بد من اتحاد جميع الجهود، أى جهود الشباب الحادة السريعة الانفعال والمندفعة إلى العمل الفورى المباشر، وتضافرها مع جهود الذين أنضجتهم سابقية المعارف، وتجارب الحياة، لكى تنهى على خير وفى نجاح، تلك المهمة الضرورية التى تشغل، بل تقلق من بيننا ممن هم أكثر وفاء للصدارة الثقافة، وحسن القيادة التقدمية.

حقاً، نحن الآن فى حقبة من حقب التطور والانتقال. وفى مثيلات هذه الحقبة يحتاج العقلاء دائماً إلى الاسترشاد بأضواء القيادات الحكيمة، والاستنارة بأنوار القدوة الطيبة حتى لا يهيموا فى متاهات التخبط، ولا يضلوا فى صحراوات الاضطراب والارتباك. فهل نستطيع فى هذه الحالة أن نستعيد ذكريات العصور الإسلامية الأولى فإننا إذا استعدنا ذكريات تلك الحقب الذهبية، ألفينا بديهاً أن الإسلام قد مزج بين المعارف النافعة والموروثات الصالحة من تراث الشرق والغرب، وأفاض عليها من أنوار الوحى وأضواء السماء ما جعلها قمينة بخلق أمة عظيمة صالحة للبقاء والسيادة، ومدنية رفيعة خالدة. وكأنه قد حقن جميع الشعوب التى اعتنقته بحقن حيوية جديدة هى ينبوع من ينابيع العلم والفن والمعرفة والثقافة، كما كانت مصدراً للعقيدة الثابتة والإيمان الراسخ، والقيم الأخلاقية العالية، والمبادئ الإنسانية السامية.

المسلمون والتطور..

إن المسلمين اليوم لا يستطيعون أن يبقوا فى معزل عن أية صورة من صور التجديدات العقلية، أو التطورات الاجتماعية، فمن المهمات الأساسية للإسلام - الذى هو فى الوقت ذاته عقيدة وتشريع - أن يستمر دون أدنى توقف فى أن يكون يقظاً حذراً وأن يتولى على الدوام

قيادة تحديد المصير، وأن يرأس - دون أى تخل - ذلك التوازن الضرورى بين التقاليد المتوارثة، والمعارف الجديدة. وذلك لأن الحلول المستوردة التى تقدم إلينا لا تلتئم معنا لأن الطوابع المميزة لمجتمعنا تتباين فى أكثر اتجاهاتها ومناهجها مع طوابع الغرب وهى الطوابع الاستعمارية بصورتيها القديمة والجديدة، والرأسمالية القائمة على الأنانية البغيضة والجشع المقيت وإذن فطبائع الأشياء من جهة، وإملاء الحاجة الملحة من جهة أخرى، هما اللذان يقتضيان أن تكون مبادئنا الإسلامية هى الأسس الثابتة التى تعتمد عليها الاتجاهات الثقافية والأنظمة السياسية عندنا.

ومعنى هذا فى وضوح تام أن من الداخل وحده ينبغى أن تنبثق حلول مشاكلنا التى ننقب عنها، بل التى نتحرق شوقاً إليها، وهى أقرب إلينا من حبل الوريد.

«كالعيس فى البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول»

ولاريب أن هذا لا يتطلب منا سوى أن نفتح عيون عقولنا على القرآن الكريم حتى نجد فيه - على مستوى أفهام القادة المثقفة - ما يمكن أن يطلق عليه اسم مفاتيح المفاهيم الرئيسية لجميع أبواب المناطق الروحية والثقافية. والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية. وهو مبدأ الاعتدال أو الوقوف فى نقطة التوسط بين استقرار العدالة السماوية الأبدية، ومرونة التطورات الإنسانية.

الفلسفة تتراجع أمام الإسلام..

ولقد حدد أرسطو هذا التوسط تحديداً عددياً يخضع للحساب والأرقام إلى درجة أنه عين رقم الفضيلة الذى لو تجاوزته إلى أعلى أو إلى أدنى لصارت رذيلة أو أقرب إلى الرذيلة. وقد افتتن كثير من العقول بهذا التحديد الحسابى الأرسطى، ولكن القرآن وتتميم شرحه بالأحاديث النبوية قد وضعا لهذه النظرية أحكم القواعد وأسماها، وأكثرها قابلية لمتناول البشرية، وأدخلها فى باب الإمكانيات العملية، وأيسرها فى التطبيق مما جعل تلك القاعدة الرقمية الأرسطية تتراجع باهتة منهارة أمام تلك التعاليم السماوية الخالدة التى نستطيع إجمالها فى أن التوسط لا يزيد على كونه نوعاً من الاعتدال البشرى النبيل الذى يجب أن يقترب من الكمال فى كل شىء بقدر المستطاع، وأن يصحبه فى سيره هذا، كثير من الأمل والمرح كما يشير إلى ذلك الحديث الشريف «إن الدين يسر، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا....» رواه البخارى.

والحق أننا إذا تأملنا تأملاً دقيقاً فى نظرية أرسطو وفى مبدأ الإسلام ووازنا بينهما ألفينا أن الأولى مدموغة بطابع البشرية الأرضية الناقصة المعيبة، وأن الثانى تشع منه أضواء

الكمال إذ أننا لو حددنا موضوع الإنفاق أو الإعطاء مثلاً بأرقام التوسط الأرسطى، فكيف نتصرف فى تحديد من يستحق الإعطاء؟ وكم ينبغى أن يعطى؟ ومتى؟ ولأية غاية؟

لاشك فى أن ذلك الرقم الذى حدده حكيم «استاجيرا» سيقف واجماً مبهوتاً أمام هذه الأسئلة السالفة التى حددها الإسلام وأجاب عليها بأن ما ينبغى عمله فى هذه المواقف هو الاجتهاد فى الاقتراب من الكمال بقدر ما تتسع له الطاقة البشرية.

الشجاعة والأمانة..

ولما كنا قد أشرنا آنفاً إلى الواجبات الضرورية، فإنه ينبغى لنا أن نجمل هذه الواجبات هنا فى فضيلتين هامتين وهما الشجاعة والأمانة المثالية أو الوفاء للمبدأ، وهما أساسيتان فى تكوين العقليات، وفي محيط الرياضة البدنية الجماعية التى تعد الجسم لأن يكون وعاء صالحاً لجميع الانتاجات المعنوية، ومن ثم كانت هاتان المهمتان متلازمتين تلازماً كاملاً.

ومعنى توافر الشجاعة والأمانة فى العقليات هو الوصول إلى جعلها مرنة إلى حد المقدرة القصوى على فهم العالم والقوى التى تعمره، وإدراك الفكر والوقائع التى يكتظ بها، وأحداث الماضى والحاضر، وجميع تجارب العلوم الحية. وهى تتناول كذلك عدم التقهقر أمام عقبات العقل ومتاعب الفكر عندما يتعلق الأمر بالبحث عن الحقيقة، ومن ثم ينعت القرآن من يأتى بالحق ويؤمن به بأنه فى مقدمة الأتقياء الفضلاء ﴿وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ {الزمر/٣٣}.

ومما يدخل فى محيط هاتين الفضيلتين البعد عن كل ما يعرض الإنسان للمواقف المشتملة، على أنصاف الحلول، أو أنصاف الرذائل الشائنة إذا صح هذا التعبر، أو المتشابهات القائمة بين المباح والمحظور «ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه».

ومجمل هذا كله أن يكون المرء برئياً نظيفاً فى كل ما يفعل أو يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ {التوبة/١١٩} أى أن يتطابق القول والعمل أتم التطابق وأكمله.

وأخيراً تتناول الشجاعة والأمانة جرأة الشباب على أن يريدوا وأن يعرفوا، وأن يفهموا فهماً ذاتياً أى أنهم يكونوا رجالاً لا أطفالا، ورؤساً لا أذناباً، وأن لا ينصرفوا البتة فى تناقض

مع أقوالهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ {الصف ٢/٣}

وهنا يتحتم علينا أن نتذكر أن الطلاب يظفرون بميزة خاصة لا تتيسر لغيرهم، وهى مهمة التعلم الذى يسلحون به عقولهم مدى الحياة بفضل الوسائل التى يملكونها، والهدوء الذى يمكنهم من تأدية رسالتهم العلمية، والتى لا يملكها الآخرون. وإذن فعدم الاستفادة من هذه المهمة، أو استغلالها فى أهداف نفعية خالصة كلاهما شؤم على الصالح العام، ومتنافر مع روح الإسلام الذى يأمر بالاعتدال والأخذ بطرف كل من الروحية والمادية ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ {القصص/٧٧}.

ومن هذا يتبين فى وضوح أن جانباً هاماً من مصير الوطن يتعلق بالتكوين العقلى والخلقى والجسمى للشباب ولهذا يجب على الناضجين أن يبذلوا جهوداً جبارة، بل إن يفرغوا كل ما فى وسعهم من قوة للعناية بهذه الناحية من نواحى الحياة.

التربية الإسلامية والقيم الروحية

﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ {النحل/١٢٥} .

هذه دعوة إلى سبيل الله، سداتها الرفق، ولحمتها اللين، نفتح بها نافذة على هذه السبيل بغية استشراق نسمة نقية من الفكر، واستنشاق ندوة عطرية من الفهم، نأخذ بها - أكثر مما أخذنا - جرعة أو جرعات من الصراحة الفائضة، والمكاشفة الزائدة، ونثبت بها أقدامنا على الطريق، بعد أن نتأكد من وضوح هذا الطريق، وخلوه من العثرات والعقبات، حين نطلب أن تكون المسيرة على هدى واضح، وسنن ثابت.

ولسنا نريد فى هذه الدعوة اللينة الرفيقة إلى هدم بناء تطاول عليه القدم، بقدر ما نتطلع إلى المعاونة فى رفع الحجب عن صرحنا الشامخ الثابت، بما يساعد على توضيح الرؤية، ويجعل وضوحها بعيد المدى على الطريق الذى يمتد أمامنا عبر المستقبل القريب أو البعيد. ذلك إذا أردنا تعميقاً لحياتنا، وتنسيقاً لخطواتنا، وتقويماً لأهدافنا،وتوكيداً لقيمنا.

ابتداء من هذه النقطة، وانطلاقاً من الإيمان بالإنسان وبالإنسانية وما تعانيه من آلام وجراح، واعتقاداً فى المضمون الدينى الذى يشتاق إليه فراغ المادة فى البشر، ليملأه بما يرفع قيمة الفرد فى المجتمع، ويرفع قدره فى نفسه، ويمنحه ثقة وإيماناً بالعمل وجدواه..

وحفاظاً على المجموعة البشرية، والحضارة الإنسانية، من أن ترتاد مهلكاً إن هى تنكبت طريق الاعتقاد السليم، والخلق القويم، وانساقت وراء البدع السادرة، أو انجرفت فى تيار الانحرافات الهادرة..

ودفعاً للعربى المؤمن فى الدرب الممهد المطمئن، الذى يؤدى إلى الاقتباس من النور المستبشر الرائق، فيمنح القوة والعزم، على رفع المشعل عالياً، فى خدمة البشرية، ومنحها الطمأنينة والسلام والأمن والنقدم. وإيماناً قوياً راسخاً، لا يتزحزح، بدور العربى المؤمن المثقف فى تجنيب البشرية الويلات والشرور ووضعها على أول السمت المضىء ودفعها فيه..

نرى أن المنطلق الحقيقى لمعالجة قضيتنا يبدأ مع الشرارة الأولى فى تربية الإنسان وتعليمه، وبذلك نلقى بثقل القضية كلها، وما تتضمنه من مشكلات كبيرة، وتبعات خطيرة على كاهل التربية ورجالها، لأنهم فى هذا المجال مناط الأمل، ومعقد الرجاء في حل مشكلات القضية، وتقدير مسئوليتها البعيدة، وطالما لمع الأمل وبرق الرجاء.

كما نرى أن توضع هذه الغاية الكبرى، وأن يتجسد هذا الهدف الأسمى، أمام عينى المربى، وفوق قمة آماله، حتى تكون دائماً ماثلة أمامه، وليجعل من توخيها والمحافظة عليها، العطاء الذى يستطيع أن يمنحه ولده وأخاه، أعنى تلميذه، والمنهل الذى يرده ليشرق به بعد رى على الأمانة المودعة فى عنقه، والأمل الذى تتطلع من خلاله البشرية إليه.

وأول ما ينبغى أن نضعه أمام عينيه، هذه الحقيقة الكبرى التى تصبح فى أعماق الإنسان، كل إنسان، صباح مساء، بل هى تصرخ فى داخله ولكنه لا يسمعها إلا إذا أراد، ولو شاء لسمع هذه الصرخة أو ذاك النداء فى كل لحظة تمر به فى يقظته وصحوه، تلك الحقيقة نعنى بها تلازم الشقين الأساسيين للحياة وتكاملهما من أجل هذه الحياة. وهل تقوم الحياة إلا على أساس من تلاحم الروح والمادة وتكاملهما؟

وعلى أساس من الواقع وأرضه الصلبة، وفوق قمته الواعية نسجل أن النهضة الحضارية الحقيقية لا تبنى - فى غير شك أو مراء - إلا على تقوية هذين العنصرين وتنميتهما، وأن المجتمع الحضارى الصحيح لا يقوم ولا يقف على قدميه إلا اعتماداً على هاتين القوتين، والحضارة التى لا تقوم عليهما معاً تكون حضارة عرجاء شهواء..

وما استقامت حركة ولا حياة على عجز، وما اكتملت نهضة ولا وثبة بنقص، ولا يرجعى بحال أن تصح لنا مادة بلا روح.

إن نظرة سريعة إلى تاريخ الحضارة الإنسانية، وحركته بين شعوب الأرض المختلفة، فى مصر والعراق والهند والصين وفى أثينا وروما، وعند العرب والغربيين - لترينا فى وضوح لا يقبل المراء: أى هذه الحضارات استطاع أن يبقى وأن يطاول الزمن، كما تنبئنا أيها كان أقدر على الثبات والنضج والتطور فى مقبل الأيام.

ولسنا نقف موقفاً متحيزاً ولا متعصباً إذا قلنا إن الحضارة العربية هى الحضارة الفذة التى استطاعت لن تتمثل كل الحضارات السابقة عليها، وأن تهضمها هضماً قوياً بما فيها من أفكار وفلسفات وعلوم وفنون، ثم تخرجها إلى البشرية عنصراً قوياً باهراً له صفاته الخاصة، وملامحه العربية المتميزة، ولونه الإسلامى القاهر. وأن كثيراً من علماء الغرب الذين يتخذون المنهج العلمى الصحيح سبيلهم ليؤكدون فى غير تحرج أو مواربة: أنه لولا الفكر الإسلامى والعلم الإسلامى - بما حفظه من آثار الحضارات القديمة، وبما قدمه من أفكار ومعطيات علمية جديدة - ما قامت فى الغرب هذه النهضة الحديثة التى استطاعت من خلالها الدول الغربية أن تحرز هذا التفوق الكبير على غيرها من أمم الأرض بالاستعمار تارة، وبالتقدم الصناعى والتكنية تارة أخرى.

لقد ظلت الحضارة العربية تعطى البشرية من إنتاجها علوماً وآداباً وفلسفات طوال قرون عشرة، أو نحو ذلك. أعطت فيها نماذج قوية من الفكر الخالد، والقيم العالية، والعلم التجريبى الناضج، والأدب الحى الرفيع.. فماذا أعطت حضارة الغربيين لهذه البشرية منذ أخذوا علوم المسلمين ومناهجهم وآثارهم، وبدأوا يستيقظون بعد سبات طويل عميق؟؟

والإجابة على هذا التساؤل قريبة جداً، ماثلة للعيان حين نتلفت من حولنا فى هذا العالم، لنجد المادية المغرقة قد سيطرت على كل شئ فى حياتنا، وأن الآلية والمكانيكية هى الهدف الوحيد الذى تتجه إليه هذه الحضارة العارمة الكاسحة، بما تحمله فى ثناياها من أجهزة التدمير، وأدوات الفتك وآلات التمزيق، وعدد التخريب والتشريد.

ونحن لا نضيف جديداً إذا ذكرنا أن كل ما أحرزته هذه الحضارة من تقدم ليس إلا من خلال الحروب المدمرة سواء أكان من نتائجها، أم كان من أجل التهيؤ لها، ومواصلة إشعال نيرانها.

لقد استطاعت الحضارة الغربية حقاً أن تودى خدمات للإنسان بما هو مادة فحسب، وذلك حين أراحت جسمه وبدنه وحين يسرت له الحياة المادية فى البيت والطريق والمعمل، ولكن أية آلام استطاعت أن تنزلها بنفسه وروحه وأعصابه ووجدانه، وبما انعكس من هذه الآلام جميعاً على قلبه وعقله، وباقى أجهزته، ومقومات صحته وعمره؟ لقد حطمته معنوياً، ودمرته كذلك جسدياً، ثم أخذت تفكر فى علاج أعضائه، ورم جسده عن طريق الطب والدواء والجراحات تارة، وعن طريق العلاجات النفسية والعقلية والعصبية تارة أخرى.

ولكن هل استطاعت هذه الحضارة، رغم هذا، أن تشفى آلامه وتضمد جراحه؟ إن الإجابة تكمن فى هذه العيادات النفسية والمستشفيات العصبية، والمصحات العقلية التى تملأ مدن الغرب، وأخذت تزحف على مدن الشرق، مع انتقال أسباب هذه الحضارة المادية إلينا، وأنها لتكمن أيضاً فى جيوب الناس وحقائبهم وخزاناتهم، أقراصاً للتهدئة، وجرعات للغيبوبة، وعقارات للتنويم، وسموماً للتخدير، وأشربة للسكر، كل ذلك من أجل هدف واحد هو الانفصال عن واقع الحياة المادية المؤلم، والغياب عن مسئوليات الإنسان عنها، والابتعاد عن القيام بدوره الطبيعى فيها، مفكراً واعياً يقظاً، والهروب من هذه المادية المسرنة التى لا يحتمل واقعها، ولا يطاق فراغها من القيم، وخواؤها من المضمون العقدى الصحيح.

هذا هو كل ما قدمته حضارة الغربيين إلى البشرية وآلامها البدنية والجسدية.. ولقد قدمت فوق هذا كله شيئاً آخر من الناحية العقلية والفكرية، يتجلى فى هذه المذاهب، والأفكار، والآراء السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بل الفنية أيضاً. ونذكر أشهرها على سبيل المثال لا الحصر؟ الشيوعية المارقة، والرأسمالية الاحتكارية المستغلة، والميكافيلية، والنازية،

والصهيونية، والفاشستية، والوجودية المنحرفة، والسيريالية، واللامعقولية، وغيرها مما بلبل الأفكار، وحير الألباب، وأضل العقول، وخرب الوجدانات والقلوب، وأدخل الناس في متاهات لا نهاية لها من الحيرة والقلق والشك والارتياب، وأنزلهم في منازل من الصراعات النفسية والعقلية لا أخر لها ولا منجاة منها ولا خلاص فيها.

دعك من حديثهم عن العدالة الاجتماعية، وعن الحرية الفكرية، وعن الديمقراطية السياسية، فواقع الحال ينبيك بما يجرى بينهم بعكسها وما يطبق فى الحقيقة المؤلمة بضدها، وأخبارهم تترى كل يوم بحكم الطبقات واستغلال النفوذ، وسيطرة الأموال، وتزييف الانتخابات، واشتراء الأصوات، وتسلطهم على الحكم عصابات عصابات، وتحكمهم فى الدول النامية تحكماً يباعد بينها وبين النمو، ويبدد كل أمل لها فيه، واستنزافهم لثروات الشعوب البائسة الفقيرة، لتزداد بؤساً وفقراً، ويضاعفوا هم ترفهم المادى، وانحلالهم الخلقى، ثم إثارتهم الحروب المهلكة المدمرة فى كل بقعة من أنحاء العالم المعذب المسكين.. من أجل اغتصاب حرية مطلوبة، وتجريب أسلحة جديدة وتجارة رابحة فى هذه الأسلحة، وإبادة شعوب وأجناس تناوئهم وتطالب بالتحرر من استغلالهم واستبعادهم.

إن كثيراً من المفكرين والفلاسفة والمؤرخين لا يشكون قيد أنملة فى أن حضارة هذه وسائلها وأساليبها، وتلك أهدافها وغاياتها، عمرها قصير فى الوجود. ذلك لأنها خلت من المضمون الفكرى السليم الذى يغذيها، وانفصلت عن أية قيمة إنسانية شريفة تصقلها أو تنميها.

فقد وجهت الحضارة الغربية اهتمامها إلى خدمة الفرد باعتباره جسداً ومادة، وبعد أن ميزت أفراداً على أفراد، وفريقاً على فريق، تمييزاً عنصرياً واضحاً، وتركت هذا الجسد أو هذه المادة خلواً من الشق الإنساني الأهم وهو الروح. وإذا كانت راحة الجسد وخدمته تتم عن طريق الآلات والأجهزة والأدوات، فإن راحة الروح وخدمتها لا تتم إلا بغذاء من الأفكار السامية النظيفة، والقيم الغالية الشريفة، والعواطف المصقولة العفيفة، التى توجه الفرد إلى خدمة البشرية، فى حرية صحيحة، وفهم رفيع، ونضج عال، ووعى صادق. من أجل حضارة إنسانية حقيقية.

وليس من شك فى أن الشق المادى فى الإنسان لا يستطيع أن يبقى خالياً خاوياً من مضمون يملؤه واعتقاد ينسكب فيه، أى أنه فى حالة اشتياق دائم إلى الشق المعنوى الأخر الذى يكمله، ويتمم الحياة الصالحة والسلوك القويم. ونحن نلاحظ فى تاريخ البشرية أن المجتمعات الحضارية كانت تنمو وتزدهر وتنمو نحو القوة والبناء والرخاء حين كان يقوى هذا المضمون - على درجات وألوان - فى فكرها وضميرها.

ولعلنا لا نبعد كثيراً إذا قلنا إن رواد الفكر والعقيدة كان همهم الأكبر وشغلهم الشاغل أن يملأوا ذلك الفراغ فى الإنسان بمضمون معنوى تطيب به الحياة، وتسير على نهج سليم كريم، وكان ذلك من أقدم عصور الحضارة.

وهنا نستطيع أن نلقى نظرة سريعة إلى الشعب العربى أيضاً. وكيف استطاع بهذه الدفعة القوية من الفكر الإسلامى أن يجتمع بعد فرقة، وأن يقوى بعد ضعف، وأن يعز بعد ذله، وأن يلمع فى أفق الحضارات بعد خبو. وأن ينهض نهضة كبرى بعد خمول وضياع، وأن يحدث أثراً ودوياً فى التاريخ بعد أن كان نسياً منسياً فيه، فأعطى نفسه قيمة إنسانية عظيمة، وأعطى غيره من الشعوب، حين استطاع أن يستمسك بهذه المجموعة الرائعة الفريدة من المضمون المعنوى الثمين والفكر الخالد، والتنظيم الفذ، والمنهج الصحيح. والسلوك القويم فكانت الحضارة الإسلامية حضارة إنسانية على اتساع معانى هذه الكلمة، حين اعتمدت الأساسين الرئيسيين فى خدمة الإنسان، إذ غذت روحه وفكره ووجدانه، وصقلت مادته، وعمرت جسده وبدنه، أى حين اعتمدت فى حضارتها على توجيه الإنسان واغنائه مادة ومعنى.

ومن هنا نبدأ الأساس الأول لما نرتضيه من منهج التربية الروحية، يعتمد من قاعدته الأساسية على فهم واضح، ووعى صادق، وإحاطة ناضجة، بأمور عامة كيف نسير، وأمور خاصة كيف تدور، ليس بما عندنا فحسب، فذلك تعصب وغرور، وإنما بما عند الآخرين مما صدق فيه الحس وسلم فيه الفكر، ونضج به الوجدان.

وإذا كان فلاسفة الغرب وأساتذة التربية وعلماء الأخلاق فيه، يجدون اليوم فى سبيل ملء الشكل المادى فى الإنسان بمضمون اعتقادى أخلاقى يبحثون عنه وينقبون، ويريدون أن يشكلوه أو يؤلفوه، ويصنفوه، وتنشط مدارس مختلفة منهم بالدعوة إلى فلسفة إنسانية شاملة، تقوم على الحرية والمحبة والسلام، وتمضى مدارس علم الأخلاق فى دراسات موضوعية من أجل تقويم هذا العلم وظواهره وأصوله، لتتخذ من نتائج هذه الدراسات ركائز للدعوة إلى بناء المجتمع الإنسانى الأفضل وتكوينه، كما تنهج مدارس التربية الحديثة هذا النهج الذى يضع القيم الخلقية نصب عينيها هدفاً وملاذاً مما تعانيه البشرية اليوم باسم «الحرية» من فوضى فكرية، وانحلال خلقى، ومادية معاشية.

أقول إذا كانت هذه الدعوة إلى القيم العليا تنشط هناك، وتلمع من خلالها فى أيامنا أسماء برتراند راسل، وجون ديوى، وهنرى لنك، وألفرد نورث، وأميل دركايم، وهنرى برجسون، وأندرى لالند، وكيركجارد وإضرابهم. فأحرى بنا، - والمضمون لدينا لا يحتاج إلى توليف أو تصنيف - أن تنشط مدارسنا، التى لمعت فى سماء تاريخها أسماء لأساتذة هؤلاء جميعاً من أمثال الفارابى وابن سينا وابن رشد وابن حزم وابن باجة وابن الطفيل والغزالى وابن

الفارض وابن خلدون وغيرهم.. وغيرهم - ولاتزال القافلة تسير ويتسلم المشاعل لاحق من سابق، حتى تشرق مع بداية الحركة الجديدة فى الإصلاح والتهذيب على يد رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبدالرحمن الكواكبى وغيرهم..

وإذا كانت الفلسفة التربوية الحديثة فى غاية تطوراتها وأحدث أساليبها توجه كل جهودها إلى الجانب العملى للنشاط الإنسانى، فإن أساتذة هذا الجانب المخلصين له المجتهدين فيه، بسيرتهم النموذجية، وقدوتهم الرفيعة، وسلوكهم الكريم، وشخصيتهم المتكاملة، هم الذين قادوا هذا الجانب التربوى العملى المثالى فى البشرية، على يد معلمهم العظيم الأمين محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه.

وإذا كانت التربية كما يقول عالمها الكبير جون ديوى أن يصبح الفرد وريثاً للحضارة الإنسانية فليدلنى واحد من الباحثين على حضارة إنسانية أرقى من الحضارة الإسلامية، وأعنى بالقيم المثالية القوية، والنماذج السلوكية الفردية والاجتماعية من هذه الحضارة التى تنخلت ونقحت ثم تمثلت كل ما سبقها من حضارات، وأصبحت بعد ذلك (أستاذاً) لما يدعى بعدها بالحضارة الحديثة.

إننا نحب أن تبدأ التربية مشرقة من فكر فتاها وفارسها فى الميدان، ومن وجدان ذلك المربى الذى يضع اللبنة الأولى فى بناء أمتنا حين يقف أمام أبنائنا، وفلذات أكبادنا، الذين يملأون جنبات المدارس طهراً وبراءة وبساطة وقدسية، يقف أمامهم وقد ملأت نفسه الثقة والطمأنينة، أنموذجاً فى القول وقدوة فى السلوك والعمل، ومثالاً فى الشجاعة والأخلاق، وينبوعاً للقيم الإنسانية والتراث الحضارى، يفيض على هذا العقول الصغيرة الحبيبة، عيناً ثرة من الفكر السليم، والخلق المستقيم، تنهل منها الوجدانات البضة وترتوى وهكذا نقف عند أول خطوة على الطريق، ولها من بعدها بطبيعة الحال خطوات، وحسبنا هنا أن ندل على استهلال السبيل.

***

«إن خمود جذوة المثل العليا برهان محزن على فشل المرامى الإنسانية، ففى المدارس القديمة كان الفلاسفة يطمحون إلى نشر الحكمة، أما فى كلياتنا الحديثة فقد أصبحت غاياتنا المتواضعة تلقين المواد وتعليمها. وهذا السقوط من مستوى الحكمة الإلهية، التى كانت غاية الأقدمين، إلى مستوى الكتب المدرسية التى تعلم المواد المختلفة، هذا التعليم الذى نجح فيه المحدثون، يدل على فشل تربوى وإسفاف توالت به العصور».

هذه العبارة التى يؤكد فيها، العالم التربوى المعروف ألفريد نورث هوايتهد فى مرارة وأسى، أن التربية وصلت منذ سنين إلى حد الفشل والإسفاف، تعكس فى صدق ما تعانيه هذه التربية من إفلاس فى الطريقة والمنهج اللذين يقودان إلى الهدف الطبيعى، أو الهدف الحقيقى للتربية، من حيث هى تستشرف إعداد الفرد للحياة بشقيها المادى والمعنوى، وذلك حين اعتمدت على التعليم الذى يمكن أن نسميه فى بساطة «التلقين»، وبذلك تكون ابتعدت كل البعد عن غاية «التربية» وطريقها، حتى فى الشق المادى، يليه الشق الروحى.

والذين أرخوا للتربية فى أقدم عصورها، لاحظوا أن هذه التربية رغم بساطتها، أو قل بدائيتها، كانت مسايرة لطبيعة الإنسان، بحيث كانت تربية حيوية، تلائم حياة هذا الإنسان مادياً وروحياً، وتعنى بالجانبين معاً دون تخطيط أو تنسيق أو ما شاكل ذلك من أساليب العصر الحديث.. فقد كان هناك المعلمون الذين يقومون على تنشئة الأبناء وتعليمهم ضروباً مختلفة من شئون المعاش الضرورية، وكان هؤلاء المعلمون من الذين مهروا فى هذه الشئون من صيد وقطف ورمى وتسلق وعوم وصنع أدوات وإنشاء بيوت وغير ذلك مما تفرضه طبيعة الحياة آنذاك. بيد أن التعليم لم يكن قاصراً فى تلك العهود البدائية على هذه النواحى من نشاط الإنسان، وإنما كان يتناول الجانب الروحى كذلك، على أساس من الفهم الذى كان يسيطر على مدارك الإنسان وأحاسيسه الفطرية التى كانت تشعر بأن لكل كائن مهما كان حظه من الحياة أو عدم الحياة ارتباطاً بقوة أخرى غير منظورة، وفى نفس الوقت هى قوة غير مادية، توجه ذلك الكائن وتسيطر عليه، وتفسر كثيراً من مظاهر الحياة البشرية فى الخير والشر والرؤى والأحلام، ومظاهر الطبيعة الكونية المعروفة كذلك.

وربط الكائنات والقوى المادية بقوى أخرى غيبية، هى من تلك بمثابة النظير أو المثيل أو المشابه من وجهة نظر الإنسان القديم، إحساس فطرى بالعلاقة القوية بين المادة والروح، وتفسير طبيعى مصدره شعور قوى، مهما كان بدائياً، للحياة بشقيها اللذين لا ينفصمان، المادى والمعنوى، مهما غاب عن الإنسان فى عصور لاحقة مثل هذا التفسير، إمعاناً فى المادة، وانغماساً فى ملاذ الحياة الفارغة الوقتية، ولم يعز على الإنسان فى تلك الأزمة القديمة أن يجد المربى أو المعلم الروحى، الذى يغذى هذا الجانب فيه، مهما كان اسمه: ساحراً أو كاهناً أو مطبباً، يقوم بتفسير قوى الطبيعة ومظاهر الحياة الإنسانية تفسيراً يرضى الجانب الروحى البدائى آنذاك، ويقدم للأفراد غذاء غير مادى من المعرفة النظرية التى تربط بين قوى غيبية وبين الحياة المادية وظواهرها من رعد وبرق ومطر، ومن زلازل وبراكين ومن حوادث تصيب الإنسان أو موت أو مرض أو أذى يلم به، على أساس فكرة النظير أو المثيل أو المشابه التى كانت نظرية أو عقيدة يؤمن بها ويفسر فى ضوئها كل ما يعن له من أمور حياته وظواهر عالمه.

وجد إذن المعلم الروحى، ووجدت معه التربية الروحية بطبيعة الحال، منذ أقدم الأزمنة لوجود الإنسان، ولوجود التعليم الذى يعتمد على تناقل الخبرات، العملية والنظرية، عن طريق التقليد والتلقين وذلك بحكم الضرورة الملحة على هذا الإنسان وعلى حاجته النفسية والحيوية إلى معرفة ضروب من النشاط العلمى الذى يلائم حياته وضروب من التفسيرات الروحية التى تقود هذا النشاط وتغذى فى نفس الوقت شقه المعنوى وترضى رغباته أو حاجاته الروحية التى تصبح فى أعماقه دائماً وتلح فى الدعاء. وليس يعنينا كثيراً صدق هذه التفسيرات أو النظريات الروحية، بقدر ما يعنينا أن نؤكد أن توفير الحاجات المادية للإنسان ليس بكاف فى كثير أو قليل أن يسد حاجاته الحقيقية فى الحياة أو يرضى نزوعه الطبيعى أو يشفى غليل اشتياقه الفطرى إلى المعرفة وإلى تفسير مقنع - يناسب مداركه وتطوره العقلى لشئون حياة المغيب فيها أكثر من المشهود.. أو بقدر ما نريد أن ندل على أن الإنسان القديم، حين لم ينغمس فى ماديات الحياة، ولم يسرف فيها بحيث تغطى على كل مشاعره وأحاسيسه، أدرك أن الجانب الروحى من المعرفة أو فيما نسميه تجوزاً فى ذلك الطور بالتربية - هو الجانب الأهم الذى يخدم حياة الإنسان، وليس يدهشنا بعد ذلك أن نجد المعلم الروحى، كاهناً أو ساحراً أو طبيباً أو أباً للأسرة، يسير على التربية، بل يسير على المجتمع، وهو القبيلة حينذاك، باعتباره مصدراً مهماً، أو المصدر الأهم لتعليم الناس، والناشئة بصفة خاصة، وتفسير شئونهم المعنوية، وتغذية فطرتهم الروحية وتلقينهم المعرفة النظرية، وضروباً شتى من المعرفة العملية.

كانت الغلبة للجانب الروحى كما كانت لها القيادة والتوجيه على الجانب المادى فى الحياة. وفى زعمنا أن ذلك لم يكن تخلفاً أو همجية كما يحلو للبعض أن يسميه، وإنما كان فطرة سليمة وطبعاً صحيحاً من إنسان يرى أن عالم الروح أوسع وأرحب، وأعمق، وأدق، وأرهب من هذا العالم الظاهر الملموس المحسوس. وهكذا تمثل عالم الروح للإنسان فى كل أعماله، صغيرها وكبيرها، فهو لا يذهب إلى صيد ولا يمضى إلى حرب، ولا ينشىء مسكناً، ولا يعد طعاماً، ولا يتخذ لباساً، بل هو لا يرقص ولا يغنى ولا يقيم الاحتفالات ولا يقدم القرابين، إلا بتوجيه روحى تقوده تلك الفكرة الملحة الغامضة عن قوة عالم الأرواح وسلطاته والرغبة الطبيعية المنطلقة لإرضاء هذا العالم وعدم إغضاب تلك القوة.

ومع تزايد إحساس «المعلمين» بقوتهم، الناجمة عن اعتقاد الناس الشديد فى الجانب الروحى، وسيطرة هذا الجانب على جميع شئون حياتهم، أصبحت هناك طبقة خاصة من «رجال التربية» وبدأ ينفذ إلى المجتمع ما يمكن أن نسميه بلغتنا الحديثة ضرب من الاحتكار التربوى، حين عمد هؤلاء إلى تقوية كيانهم الخاص، واحتكار صنوف من المعرفة والتفسيرات الروحية التى يتداولونها فيما بينهم، ولا يقدمون منها للعامة، أو طلاب المعرفة،

إلا بمقدار ما يرضى رغباتهم أو يصور لهم هذا الرضا، وإلا بمقدار ما يمكن لهذا الاحتكار التربوى من فرض السلطة والهيمنة وتقوية حاجة العامة إليه. ولذلك نشأت لهم، فى تلك العهود السحيقة، مدارس خاصة، يرى مؤرخو التربية أن كلا منها «كانت مدرسة بكل ما تتحمل معانى هذه الكلمة فى العصور الحديثة» من وجود الطلاب والمعلمين والأنظمة واللوائح والتعاليم أو الطقوس أو ما نسميه فى أيامنا هذه بالمناهج.

ومنذ ذلك الحين بدأت التربية تأخذ شكلاً جديداً، إذ انتقلت من طورها البدائى إلى طور أكثر تقدماً من حيث الرسم والتنظيم، هو طور التحضر الذى أخذ ينمو ويزدهر بين الشعوب الحضارية العريقة، على ضفاف النيل، والرافدين، حيث حدث فى تاريخ التربية أكبر انقلابين أو أهم ثورتين فى هذا التاريخ الطويل بلا مراء، ونعنى بهما على الفور: الكتابة، والتوحيد.

إن النظريات الحديثة لا تغفل بحال الجانب المعنوى فى الإنسان، حتى تؤكد ضرورة رعاية الأخلاق وتربية السلوك الخلقى، على الصعيدين الفردى والجماعى، ولكنها لا ترسم السبل الصحيحة، أو الموفقة، إلى تطبيق هذه الغاية وتحقيقها، وليس من شك فى أن كثرة هذه النظريات من جهة، يوقع الآباء والمربين فى حيرة بالغة، بل فى متاهات مضللة، يضربون فيها على غير هدى، بما يعجزهم عن الوقوف على أول الطريق السليم الذى ينبغى عليهم أن يسلكوه مع أبنائهم وبناتهم، محصلة الأجيال الصاعدة، والقيادات النامية.

أما من الجهة الأخرى، فإن كثيراً من هذه النظريات، يكون بالغ الدقة والإحكام من حيث الصياغة النظرية، والتخطيط العقلى، ولكنه يفشل فشلاً ذريعاً حين يعمد إلى التنفيذ والتطبيق، وتكون الخسارة حينئذ فادحة باهظة لأن النتائج الحقيقية للتطبيق التربوى لا تشرق فى صورتها الواضحة الصحيحة إلا بعد مضى جيل أو جيلين من الناشئة الذين يكونون حطب التجارب المريرة المؤسفة ووقودها وقد لا يجدى بعد ذلك نفير التحذير ولا تنفع جهود التطبيب والتحذير.

والذين يتلفتون من حولنا فى العالم طولاً وعرضاً، يتبينون فى وضوح وجلاء ثمار الأخطاء ونتائج الفشل الذى وقعت فيه نظريات التربية، بحيث أصبح من العسير الآن تدارك معظم هذه النتائج أو تلافيها، بل أصبح من العسير مواجهة الأجيال الحائرة أو الضائعة، التى وقعت فى أتون التطبيق الخاطئ لتلك النظريات، بحيث تظهر التربية فى صورة العجز الفاضح عن العودة إلى النقطة التى بدأت منها التجربة أو الاهتداء إلى نقطة غيرها تقف على أول الطريق.

على أن الذى يهمنا إلى أبعد الحدود، وهو الجانب الثالث من الصورة، أن هذه النظريات فى مجملها، أو فى حصيلتها العامة، من وجهة نظرنا، إنما هى أشكال بديعة وأطر جميلة، لها لمعان وبريق، تخلب الناظر، وتبهر بصره، ولكنها من حيث المضمون والجوهر لا تروى صدى الفكر ولا تشفى غليل القلب، حين نتطلع إليها بعين الفحص، وترقبها بضمير الاختبار.

وليس هذا الرفض لحصيلة هذه النظريات من حيث المضمون قائماً على الهوى أو نابعاً من مطلق الإنكار أو الجحود، ففيها الكثير مما يمكن أن ينتفع به ويعاون على كشف السمت الصحيح، ولكن الرفض حين يقوم على أساس التقدير الطبيعى والتقويم التاريخى لا يسلم إلى خلط أو إلى خطأ فى الحساب. ولقد دلتنا الطبيعة دائماً، كما دلت جمهور البيولوجيين والأنثروبولوجيين، على أن الأفكار والكائنات المتغيرة لا تصح ولا تستقيم، ثم لا تنمو ولا تؤتى ثماراً، إلا حيث يمكن كفالة المناخ الصالح لبقائها والتربة المناسبة لتغذيتها وتنميتها.

أما التقويم التاريخى للمضمون التربوي الحقيقى، فإنه يسلمنا بعد البحث والاستقصاء، فى المنابع الحضارية العريقة، والعروق الجذرية العميقة، الممتدة فى أغوار هذه التربة وتاريخها السحيق إلى أن النظريات التربوية المستوردة تعاكس طبيعة هذه الأمة مهما بذر من جهود فى محاولة استنباتها أو إقامتها على دعائم صناعية توهم بوقوفها أو ثباتها.

إن صورة التربية وإطارها فوق هذه الأرض يحتاجان إلى تغيير، كل التغيير، بما يناسب مضمونها الروحى، الذى كان منذ أقدم العصور، وسوف يظل فى مقبل الأجيال مضمون حضارتها، ومضمون قيمها.

وإذا كانت الأصوات هناك تعلو بالاستنكار والتحذير، يوماً بعد يوم مؤكدة فشل النظريات التربوية، فى مضمونها وفى تطبيقها، بما نسمعه صراخاً يصم الآذان متصاعداً من أجيال الشباب الذين سحقتهم التجربة، فما أحرانا أن نعود لنغمر صورة التربية فى أرضنا بنور القيم الروحية النابعة من ضميرنا، وتاريخنا وحياتنا، وآمالنا، وليكن الحوار المشرق بشمس الحقيقة رائدنا إلى تفصيل الأمر، قبل أن نستقر على الطريق.

النزعة الإنسانية فى التربية الإسلامية

تعتبر التربية من أهم الأعمال الإنسانية على مر التاريخ، وأولاها العلماء اليوم أهمية واضحة، وجعلوها فى مقدمة الأهداف الإنسانية، لأن الإنسان هو محور العملية التربوية قديماً وحديثاً، وسيلة وغاية.

وكانت التربية إحدى الوظائف البارزة، والمعالم الرئيسية لبعثة الأنبياء والرسل، وكان رسول الله محمد بن عبدالله ﷺ مربياً، ومعلماً، وقد اصطفاه الله تعالى من خيرة، وصنعه على عينه، ورباه ورعاه، وأدبه فأحسن تأديبه، ثم بعثه للناس، وأنزل عليه القرآن الكريم هدى ورحمة، وعقيدة وشريعة، وفكراً ومنهاجاً، والتزم رسول الله ﷺ منهج القرآن الفريد فى التربية وسار على هديه القويم، وطبق مبادئه، وترجم أحكامه إلى التطبيق والعمل والحياة، ودعا إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان خير المربين، وأفضل المعلمين، وحقق الهدف والغاية من البعثة والرسالة، وربى خير أمة أخرجت للناس، وتخرج من مدرسته جيل الصحابة، وهو أفضل جيل عرفه التاريخ واختط للأمة منهجاً تربوياً عملياً، حقق آثاره المباركة طوال التاريخ على مستوى الأفراد والمجتمعات فى أرجاء المعمورة، وتكون من منهج القرآن التربوي الفريد، والتربية النبوية العملية ما يعرف ويسمى بالتربية الإسلامية، الإلهية الأصل، السماوية المنشأ، وهى الأمل المشرق فى بناء الأفراد والأمة، وإصلاح المجتمع والعالم ويحرص عليها المسلمون حاضراً ومستقبلاً، ويعضون عليها بالنواجذ، ولا يبغون عنها بديلاً.

وامتازت التربية الإسلامية بعدة خصائص وميزات تفضل بها غيرها، ونقتصر هنا على واحدة منها، وهى النزعة الإنسانية فى التربية الإسلامية.

الإنسان هو الهدف:

إن الإنسان هو الهدف الأول، والمقصد الأسمى، والمحور الرئيسى للنبوات والرسالات أصلاً، والإنسان هو المبدأ والمنتهى، وهو الغاية والهدف، ليكون خليفة الله فى أرضه.

ولتأمين مصالحه، ورعاية شئونه، وتحقيق حاجاته،فتجلب له المنافع، وتدرأ عنه المفاسد، ويرفع عنه الضرر، ويماط عنه الأذى، ويتدرج به نحو الكمال والسمو.

وإن الله تعالى كرم هذا الإنسان، وخلقه فى أحسن تقويم، وسخر له ما فى السموات والأرض، وذلل له الجبال والحيوان، ومهد له السهول، وخزن له ما فى البحار، وأخرج له ما فى الأرض، وأنزل عليه وله بركات السماء، فنقطة الارتكاز الأساسية، للنبوة والرسالة، هو الإنسان، وهذا ما قصدته الآية الكريمة: (وقال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض

خليفة) فاستغربت الملائكة وتعجبت من ذلك، فقال الله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ {البقرة/٣٠}

ومن هنا اتجهت التربية النبوية إلى الإنسان، دون النظر إلى صفاته العارضة، وأحواله الخاصة، ودون اعتبار لفوارق الجنس أو اللون أو العرق أو اللغة، وحتى دون النظر لسن البلوغ، وكمال العقل.

والإنسانة آية من آيات الله تعالى، وهو من أعظم مخلوقات الله، وأكثرها تعقيداً في تركيبه، ولم يستطع التقدم والعلم أن يسبر غوره، ويكشف ذاته مع كل الاهتمام فيه، وبقى الإنسان، وخاصة فى النواحى المعنوية والروحية والنفسية لغزاً، ويمثل ذلك المجهول البعيد أمام العلم والبحث والاكتشافات والنظر، وحتى فى النواحى العضوية والفسيولوجية يقف العلم موقف العجز والحيرة فى تركيب الخلايا والدم، وفى تناسب الأعضاء، وفى انسجام الأجهزة، وفى الأداء والعطاء، ومن ذلك عمل الدماغ، ونشاط الغدد، ودقة كريات العين، ووظائف الكبد، والسر الكامن فى الدم.

والله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان، ويعلم تركيبه، وما يصلحه، وما يفسده، والله وحده يعلم كل ما فى الإنسان من الدقة والعظمة فى خلقه، ولذلك أمرنا بالنظر فى ذات الإنسان لنصل إلى معرفة الخالق، وقدرته وعظمته، ولنعرف حقيقة أنفسنا، ونكشف أغوار ذاتنا، فندرك سر العبودية فينا، واستحقاق الألوهية لله عز وجل وعندئذ نعرف حقيقة الواقع ما أمكن، قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ {الذاريات٢٠/٢١} ، وقال عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ {فصلت/٥٣}، وقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾{الروم/٨}:.

فالآيات دعوة صريحة للتأمل فى النفس، والتفكير فى ذاتها، وإطالة النظر فى ثناياها، والبحث فى أعماقها، واختبار أسرارها، للانطلاق إلى الكون، والتكيف مع الحياة أولاً: ثم للوصول إلى الخالق المبدع ثانياً: ثم التعرف على الصلة بالله، وحكمته فى الخلق. ثالثاً: وأنه لم يخلق الإنسان عبثاً ولا سدى، ولا باطلاً.

حاجة الإنسان للتربية:

ولهذه الحقائق السابقة اتجهت التربية الإسلامية فى القرآن والسُنة إلى الإنسان، كإنسان كامل، إنسان مخلوق، وهدفت إلى بناء الإنسان الكامل فى كل شىء، الكامل فى عقله، والكامل فى أخلاقه، والكامل فى سلوكه وتصرفاته، والكامل فى تفكيره ووعيه، والكامل فى عبوديته لله، والإنسان الكامل فى كرامته ووجوده، وتمثل هذا الكمال بخيرة خلق الله تعالى، الذى وصفه ربه فى القرآن الكريم، فقال تعالى: **وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ** {القلم/٤} ثم قال الله تعالى مخاطباً الناس جميعاً: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾** {الأحزاب/٢١} ،

وهذا ما سعى إليه النبى ﷺ، وغرسه فى نفوس أصحابه، وجذب به الملايين إلى دينه ودعوته، ورغب فيه من يحب الإنسانية، ومن يعشق القيم الإنسانية، ومن يحلم بأسمى صور الإنسانية للإنسان، ويتمنى أن يحيا كإنسان.

فالإسلام نظام إنسانى، يهدف إلى تحقيق مصلحة الإنسان، والحفاظ على حقوقه الطبيعية والاجتماعية، دون تمييز طبقى، أو عنصرى، أو قومى، وسواء كان مسلماً أم غير مسلم، سواء كان مواطناً أم غير مواطن، ولا يفاوت بين الناس إلا بالتقوى والعمل الصالح، وقيمة كل إنسان بما يتقنه، وبمقدار ما يحسن، وما يقدم من الأعمال، قال تعالى: **﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَـاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾** {الأنعـام/١٣٢} ، ومن فضول القول إن نبين أن الإسلام يرعى الإنسان كإنسان، سواء كان رجلاً أم امرأة، زوجاً أم زوجة، أباً أم أماً، أخاً أم أختاً، عماً أم عمة، خالاً أم خالة، من العصبات أم من ذوى الأرحام، ومن الأقارب أم الجيران أم غيرهم.

وهذا ما قصده رسول الله ﷺ فى تربيته النبوية، وسعى إليه فى بناء الإنسان عامة، والمسلم خاصة، وغرسه فى نفوس صحابته، ورباهم عليه.

وهذا ما تمثله صحابة رسول الله ﷺ ، وتلقوه منه، ثم نقلوه عنه إلى غيرهم، ثم حملوه دعوة للناس جميعاً.

وقد بين الصحابى الجليل جعفر بن أبى طالب هذه المعانى السامية للنجاشى، ملك الحبشة، بعد أن أرسلت قريش من يثير حفيظة النجاشى على المهاجرين المسلمين فى بلده، ويفسد العلاقة بينهما، ويحرض النجاشى على البطش بالمسلمين وطردهم من بلاده وتسليمهم إلى أعداء الله وأعدائهم، فأراد النجاشى أن يستوثق من الأمر، فسأل جعفراً عنه، فأجابه بجواب يبين فيه الحالة الجاهلية التى كانوا عليها، والقيم التى يعملون لها، ويقارنها مع الدعوة

الإسلامية الجديدة التى دخلوا فيها، المبادئ والقيم التى آمنوا بها والعقيدة التى انتسبوا إليها، فقال: «أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فعدد علينا أمور الإسلام، فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم الله علينا، وأحللنا ما أحل الله لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك».. وتلا عليه ما تيسر من القرآن من صدر صورة مريم، فبكى النجاشى، وقال: «إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة: انطلقا، فلا والله، لا أسلمهم إليكما».

فالتربية الإسلامية إنسانية المنشأ، إنسانية الهدف، إنسانية الوسيلة، إنسانية فى جميع جوانب الإنسان، دون أن تهتم بناحية دون أخرى، بل تولى اهتمامها بالإنسان فى جسمه وروحه وعقله، وتهتم بالإنسان فى عواطفه وغرائزه وميوله، وتعتد بالإنسان فى نشأته الطاهرة، وفى تكريمه، وفى تفضيله على بقية المخلوقات، وفى حسن صورته، وفى حياته الثمينة، وفى وفاته وانتهائه، بل وبعد وفاته ودفنه، وفى قبره وجدثه، وفى سيرته وذكراه وفى بعثه وحسابه.

وقد حققت التربية الإسلامية هذا الهدف، وتميزت بهذه الخاصية، وانفردت بهذه السمة على بقية النظريات التربوية القديمة والحديثة، وبلغ أصحاب رسول الله ﷺ أولاً، والأجيال الإسلامية لاحقاً، مثلاً أعلى فى تكوين الإنسان الصالح، وفى رعاية الإنسان الكامل وفى تربية الإنسان السوى النافع، وكانت تربية المسلمين الصادقين - فى كل زمان ومكان - صورة عن الإنسان الكامل، ونموذجاً رفيعاً لإنسانية الإنسان التى تنشدها النظريات التربوية، وتسعى لها المؤسسات التعليمية والتربوية فى العالم.

وإن التربية الإسلامية أنتجت الإنسان الفاضل فى أخلاقه، والإنسان المتزن فى حياته وتصرفاته، والإنسان المستقيم فى سلوكه والإنسان السامى فى روحه، والإنسان النشط فى

أعماله والإنسان القدير فى حمله المسئولية ورعايتها، والإنسان الواعى فى عقله، والإنسان المتفتح على مستقبله، والإنسان الإيجابى المعطاء فى حب الخير لنفسه، ولغيره على حد سواء.

وهذه الصفة الإنسانية فى التربية الإسلامية جذبت الملايين للدخول فى الإسلام، واعتناق مبادئه، عقيدة وشريعة، نظاماً وأخلاقاً بل لفتت هذه الصفة أنظار المستشرقين المنصفين فى هذا العصر، فمن ذلك ما قاله المستشرق الألمانى البروفيسور «موزر» بعد سماعه محاضرة فى التربية الإسلامية فى جامعة الجزائر، قال: «اليوم أدركت عظمة النبى محمد، وسر نجاحه وانتصاراته، لقد أولى بناء الإنسان اهتمامه بناء متكاملاً، إننا نجهل أموراً كثيرة عن النبى محمد، وبخاصة عن سمو الأهداف التى رسمها لأصحابه فى جهادهم، وعن الصورة المتكاملة التى ربى عليها أصحابه».

وهذا المعنى المقصود للنزعة الإنسانية يفسر لنا أسلوب الخطاب الشرعى، فنرى النصوص الشرعية فى القرآن والسنة تخاطب الناس جميعاً «يا أيها الناس» فى القرآن وحده مائتين وإحدى وأربعين مرة، كما خاطب القرآن الكريم الإنسان بلام الجنس ليشمل جنس الإنسان، ويعم البشرية، دون تقييد بوصف أو جنس أو لون أو لغة، وتكررت لفظة «الإنسان» فى القرآن الكريم أيضاً خمساً وستين مرة، وأكدت النصوص الشرعية أن محمداً رسول ونبى ومعلم مرب للناس جميعاً، وللعالمين، وليس لقوم دون آخرين، ولا لجنس دون غيره فقال تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ {الأعراف/١٥٨} ، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ {النساء/١٧٠} ، وقال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ {آل عمران/١٣٨} ، وقال عز وجل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ {الفرقان/١} وقال جل وعلا فى أصرح آية فى عموم الدعوة والرسالة والتربية الإسلامية: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ الأنبياء / ٧٠.

تطبيق التربية الإسلامية:

ولم تبق هذه النصوص فى حيز النظريات والفلسفات المجردة، أو الشعارات المرفوعة، أو الخيالات الذهنية، أو الدعايات البراقة، أو الجمهورية الفاضلة، بل تحولت إلى التطبيق العملى، والممارسة الواقعية، وتحققت سلوكاً وعملاً منذ أول الدعوة، وفى مجتمع البعثة الأولى، فكان المسلمون الأوائل يتألفون من مجتمع إنسانى عالمى، منهم العربى القرشى كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى، ومنهم العربى الأصيل من مختلف القبائل كآلاف المهاجرين

والأنصار، ومنهم الفارسى كسلمان، ومنهم الرومى كصهيب بن سنان، ومنهم الحبشى كبلال ابن رباح وسواهم رضى الله عنهم أجمعين.

ثم انتشرت الدعوة الإنسانية خارج الجزيرة العربية، ودخلت مختلف الشعوب فى دين الله أفواجاً، وانصهرت الأمم المتعددة فى التربية الإسلامية، وأقامت الحضارة الإنسانية والمجتمع الإنسانى، والدولة الإنسانية على أوسع رقعة من الأرض تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾{الحجرات/١٣}.

وأكد رسول الله ﷺ هذه النزعة الإنسانية فى التربية الإسلامية، وأعلن هذا المبدأ أو الهدف فى أقواله، وعالج الشذوذ والعصبية والانحراف بأفعاله وسيرته والأحاديث فى ذلك كثيرة، منها ما رواه الحاكم والطبرانى قال رسول الله ﷺ: «سلمان منا آل البيت»، وروى البيهقى عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربى على أعجمى، ولا لأعجمى على عربى، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى، اللهم هل بلغت؟ اللهم فاشهد، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب».

فأين هذه الميزة للتربية الإسلامية من التربية الوضعية: العائلية، أو القبلية، أو العشائرية، أو العنصرية، أو القومية، التى ظهرت فى التاريخ القديم والحديث، وتتغير رويداً رويداً، ولاتزال آثارها حتى الآن.

نسأل الله تعالى أن يردنا إلى ديننا رداً جميلاً، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما يعلمنا، وأن يرزقنا العمل بكتاب الله وسُنة رسوله، والحمد لله رب العالمين.

المراجع

١- تهذيب الأخلاق — تأليف/ ابن مسكويه

٢- أصول التربية والتعليم — تأليف/ أحمد عبده خير الدين

٣- علم الأخلاق — تأليف/ أحمد لطفى السيد

٤- فى التربية والتعليم — تأليف/ أحمد فهمى العمروسى

٥- تدرج المذاهب فى التربية — تأليف/ عبد القادر المناسترلى

٦- مشكلات التربية — تأليف/ على حسن الهاكع

٧- التربية الاجتماعية — تأليف/ على فكرى

٨- القدوة فى الأخلاق الفاضلة — تأليف/ محمد بيومى على

٩- المنهاج القويم فى أصول التربية والتعليم — تأليف/ محمد الصاوى

١٠- الرسول ﷺ القدوة الحسنة — تأليف/ محمود بيومى

١١- القيم الدينية والمجتمع — تأليف/ د. محمد كامل حته

١٢- الرسول ﷺ لمحات من حياته وأنوار من هديه — تأليف/ د. عبد الحليم محمود

١٣- التربية والتعليم — تأليف/ أحمد حشمت

١٤- التربية عند العرب — تأليف/ محمد فوزى العنتيل

١٥- التربية — تأليف/ لبيبه هاشم

١٦- تاريخ الفكر التربوى — تأليف/ د. سعيد إسماعيل على

١٧- التربية والتقدم — تأليف/ سعد موسى أحمد

١٨- التربية الإسلامية — تأليف/ محمد عطيه الإبراشى